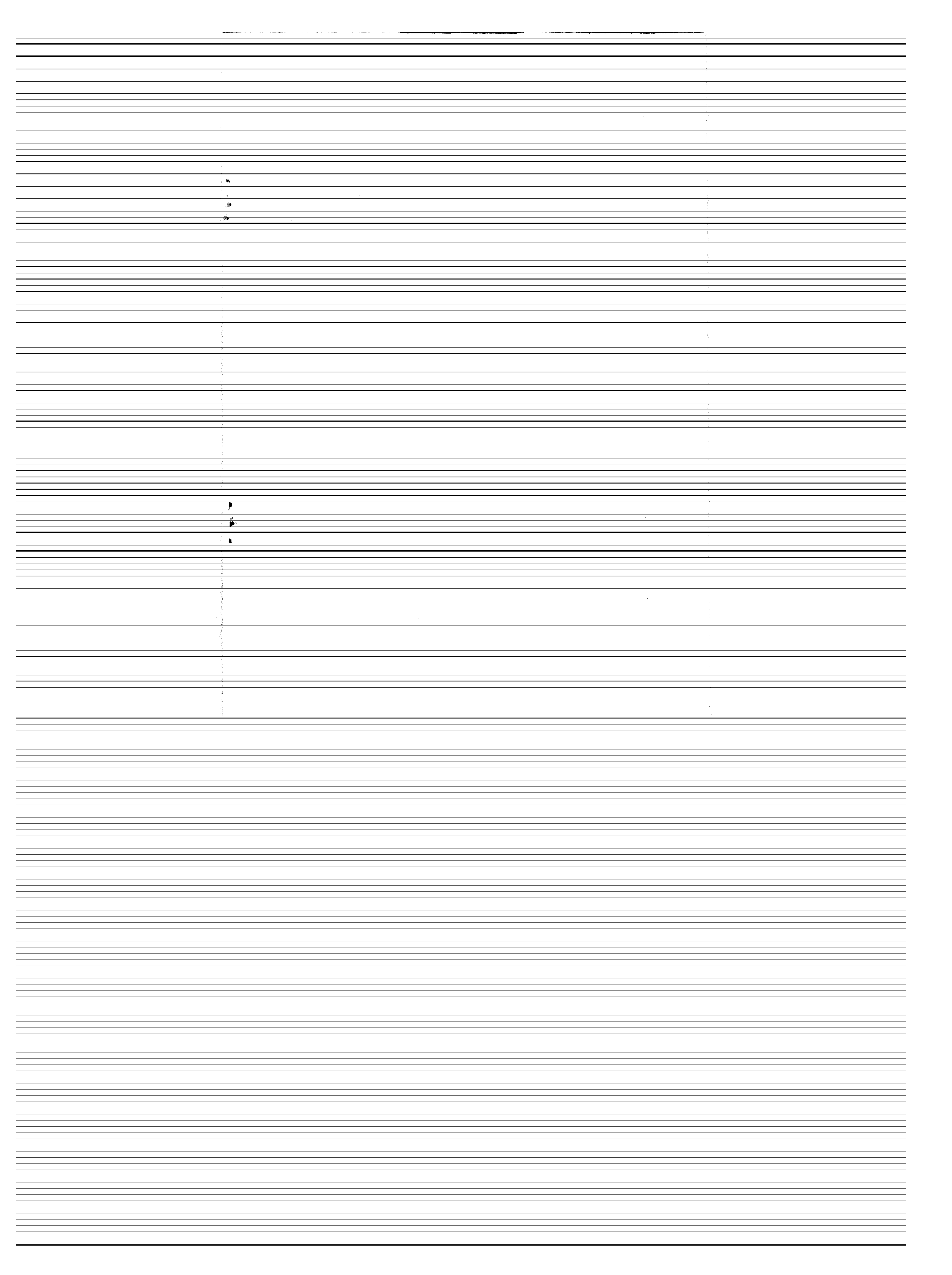

محمود الشرقاوى
أهل البيت
حمزة بن عبد المطلب
العباس بن عبد المطلب
فاطمة الزهراء
الحسن بن على
الحسين بن على
السيدة زينب
السيدة نفيسة



مقدمة

أهل البيت هم مصابيح الهدى · شجرة النبوة ، مهبط الرسالة ، ومنبع الرحمة ، ومعدن العلم ، العاملون بالقرآن المجيد ، المستجاب دعاؤهم ، الذين رضوا عن الله فرضى الله عنهم ·

روى البخارى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قال :

ـ « لكل شيء أساس ، وأساس الاسلام حب أصحابى وأهل بيتى » ·

وقال صلى الله عليه وسلم :

ـ « من مات على حب آل محمد مات شهيدا ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفورا له ، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائبا · ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمنا مستكمل الايمان · ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير ، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف الى الجنة كما تزف العروس الى بيت زوجها · ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له فى قبره بابان الى الجنة ، ألا ومن مات على حب آل محمد جعل قبره مزار ملائكة الرحمة ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة · ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوبا بين عينيه آيس من رحمة الله ، ألا ومن مات على بغض آل محمد مات كافرا ، ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة » ·

وقد خصهم الله تعالى بمزايا منها تحريم الصدقة عليهم لكونها أوساخ الناس وتعويضهم من الفيء والغنيمة ، وطلب أكرامهم وتوقيرهم ·

وحث الرسول صلى الله عليه وسلم على الاقتداء بهم والتعلم منهم فقدبرأهم الله تعالى من كل وصمة وسقطة وعثار وميزهم بأنهم الحائزون لقصب السبق فى كل كمال ومضمار ·

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ « الحمد لله الذى جعل فينا الحكمة أهل البيت » ·

وروى الديلمى والطبرانى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :

– لايؤمن عبد حتى أكون أحب اليه من نفسه ، وتكون عترتى أحب اليه من عترته وأهلى أحب اليه من أهله وذاتى أحب اليه من ذاته .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

– توفى لصفية بنت عبد المطلب رضى الله عنها ابن ، فبكت عليه ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم :

– تبكين ياعمة ، من توفى له ولد فى الاسلام كان له بيت فى الجنة يسكنه .

فلما خرجت لقيها رجل ، فقال لها :

– ان قرابة محمد لن تغنى عنك من الله شيئا ، فبكت ، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوتها ، ففزع من ذلك فخرج ، وكان صلى الله عليه وسلم مكرما لها يبرها ويحبها ، فقال لها :

– ياعمة ، تبكين ، وقد قلت لك ما قلت ؟

قالت : ليس ذلك أبكانى ، وأخبرته بما قال الرجل ، فغضب صلى الله عليه وسلم وقال :

– ما بال أقوام يزعمون أن قرابتى لا تنفع ان كل سبب ونسب ينقطع يوم القيامة الا سببى ، نسبى وان رحمى موصولة فى الدنيا والآخرة .

وروى عن كعب بن شجرة أنه قال : لما نزلت الآية الكريمة :

« ان الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما » .

قلنا : يا رسول الله قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلى عليك ؟

فقال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد

وروى عن الرسول صلى الله عليه وسلم قوله :

– « لاتصلوا على الصلاة البتراء » .

فقالوا : وما الصلاة البتراء ؟

قال : تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون بل قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ٠

قال الامام الشافعي رضي الله عنه :

يا أهــل بيت رسول الله حبكم
فرض من الله في القــرآن أنزله
كفاكم مــن عظيم القــدر أنكم
من لم يصل عليكم لا صـلاة له (١)

وحب أهل البيت واجب ٠ فهم أساس الدين ، وعماد اليقين ، يقول الامام محي الدين بن عربي :

رأيت ولائي آل طـه فريضــــة
على رغـم البعد يورثني القـــربا
فما طلب المبعوث أجرا على الهـدى
بتبليغـــه الا المـودة في القـــربى

ويقول الامام الشافعي رضي الله عنه :

آل النـــبي ذريعـــتي وهــو اليـــه وسـيلتي

أرجو بهـــم أعطى غــدا بيـــد اليمين صـحيفتي

وكان السلف الصالح يتوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وآله الطاهرين وعترته المباركين ، فيفرج الله تعالى كروبهم ، ويكشف غمومهم ، فقد قصدوا مهابط يستجاب فيها الدعاء ، وتحيط بها ملائكة السماء ٠

فهذا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ثاني الخلفاء الراشدين ، من أعز الله به الاسلام ، وقد عرف للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه ، عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصنو أبيه ، قدره ، توسل به في حاجته وحاجة المسلمين ، ففي عام الرمادة ، رؤى عمر ، متبذلا ، متضرعا ، وعـن

---

(١) أي لا صلاة له صحيحة أو لا صلاة له كاملة (الصواعق المحرقةص٨٨)

يمينه العباس بن عبد المطلب خرج للاستسقاء ، فدعا يومئذ وهو مستقبل القبلة رافعا يديه الى السماء يقول :

ـ اللهم انا كنا اذا قحطنا توسلنا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم فتسقينا ، وانا نتوسل اليك بعم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ونستشفع به اليك فأسقنا ٠

وقال العباس :

ـ اللهم انه لم ينزل بلاء من السماء ، الا بذنب ، ولا يكشف الا بتوبة ، وقد توجه بى القوم اليك لمكانى من نبيك ، وهذه أيدينا اليك بالذنوب ، ونواصينا بالتوبة ، وأنت الراعى لاتهمل الضالة ، ولا تدع الكسير بدار وضيعة فقد ضرع الصغير ، ورق الكبير ، وارتفعت الشكوى ، وأنت تعلم السر وأخفى ، اللهم فأغثهم بغياثك قبل أن يقنطوا فيهلكوا فانه لاييأس من رحمتك الا القوم الكافرون ٠

فما أتم دعاءه ، حتى هطل المطر ، ويروى لابن عفيف فى الاستسقاء بالعباس :

ما زال عباس بن شيبة غاية
للناس عند تنكر الأيام

رجل تفتحت السماء لصوته
لما دعى بدعاوة الاسلام

فتحت له أبوابها لما دعى
فيها بجند معلمين كرام

عم النبى فلا كمن هو عمه
ولد ولا كالعم فى الأعمام

عرفت قريش يوم قام مقامه
فيه له فضل على الأقوام

وروى ابن ماجه عن أبى سعيد الخدرى ، رضى الله عنه ٠ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من خرج من بيته الى الصلاة ، فقال : اللهم انى أسألك بحق السائلين عليك ، وأسألك بحق ممشاى اليك ، فانى لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة ، انما خرجت اتقاء سخطك ، وابتغاء مرضاتك ، فأسألك أن تعيذنى من النار ، وأن تغفر لى ذنوبى ، فانه لايغفر الذنوب الا أنت ، أقبل الله تعالى عليه ، واستغفرت له الملائكة » ٠

في هذا الحديث الشريف ، حث الرسول صلى الله عليه وسلم على التقرب بالسائلين ، والتوسل بهم · ومن أولى بذلك من سائلى السادة المقربين ، الطاهرين ، وهم آل بيت نبيه صلى الله عليه وسلم ·

روى ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم لما ماتت فاطمة بنت أسد ، أم على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال :

ـ اللهم اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلى » ·

فثبت بهذا الحديث ، جواز التوسل بالأنبياء ، مما يؤيد ثبوت أصل التوسل بلا مراء ·

وروى البخارى أن النبى صلى الله عليه وسلم جاءه ضرير فقال :

ـ يارسول الله ، أدع الله لى أن يعافينى ·

فأمره بأن يتوضأ ، ويحسن الوضوء ، ويقول :

ـ اللهم انى أسألك واتوجه اليك ، بنبيك محمد نبى الرحمة ، يامحمد انى أتوجه بك الى ربك فى حاجتى لتقضى ، اللهم شفعه فى · ففعل فعاد بصيرا ·

وفى هذا الحديث ، أمر من رسول الهدى بالتوسل بالنبى عليه السلام ، وهو أس التوسل ، وفى بنائه أساس متين · وكان الصحابة رضوان الله عليهم يتوسلون بالرسول صلى الله عليه وسلم ، بعد انتقاله الى الرفيق الأعلى ، وهم نجوم الهدى ، ومنار الرشاد ، وقدوة العباد ·

روى ابن شيبة والبيهقى أن الناس أصابهم قحط شديد فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فجاء بلال بن الحرث ، الى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وقال :

ـ يارسول الله ، استسق لأمتك فانهم قد هلكوا

فأتاه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام فقال :

ـ ايت عمر فاقرئه السلام ، وأخبره أنهم يسقون ·

فقام من نومه مسرورا ، وسقاهم ربهم شرابا طهورا ·

وهذا نص صريح فى توسل الصحابة عن الأمة برسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته . وهو دامغ لمن لا يجيز التوسل به صلوات الله عليه بعد لحوقه بالرفيق الأعلى ، وآية على جواز التوسل بمن مات من آل بيته رضى الله عنهم ، لأنهم جزؤه ، وبضعة منه .

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ حياتى خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، ومماتى خير لكم تعرض على أعمالكم ، فما رأيت من خير حمدت الله تعالى عليه ، وما رأيت من شر استغفرت الله لكم .

يقول الأستاذ الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقا فى مقدمته لكتاب «شفاء السقام» للامام السبكى :

« كما جاز أن يتوسط حى فى قضاء مصلحة حى أو ميت ، والفعل لله وحده ، جاز أن يتوسط ميت فى قضاء مصلحة حى أو ميت ، والفعل لله وحده ، فالأرواح باقية على الحياة »

ويقول الأستاذ الشيخ محمد حسنين مخلوف :

« ان الروح تبقى فى البرزخ مدركة تسمع وتبصر وتسبح سبحا فى ملك الله حيث أراد الله وقدر ، وتتصل بالأرواح الأخرى ، وتأنس بها وتناجيها ، سواء أكانت أرواح أحياء أم أرواح أموات » .

وقال أيضا :

ـ « وقد تواترت الروايات الصحيحة والرؤى من أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ، وانها تقرأ القرآن وتصلى وتخبر أرواح الأحياء عند لقائها ، وتقضى حوائج الناس ، وأنها تقدر على ما لاتقدر على مثله حال اتصالها بالبدن فى الدنيا من هزيمة الجيوش الكبيرة بالعدد القليل ، متمثلة وغير متمثلة وظاهر أن هذا هو لبعض الأرواح التى يؤذن لها بذلك » .

وأهل البيت فى برزخهم ، يفيضون ، كما كانوا يفيضون فى الحياة الدنيا ، حيوية ومحبة ، ومن علاهم يمدون أيديهم ويهدون علمهم ، ويبثون ايحاءاتهم للاحياء بالعمل الصالح ، والاقبال على طاعة الله تعالى .

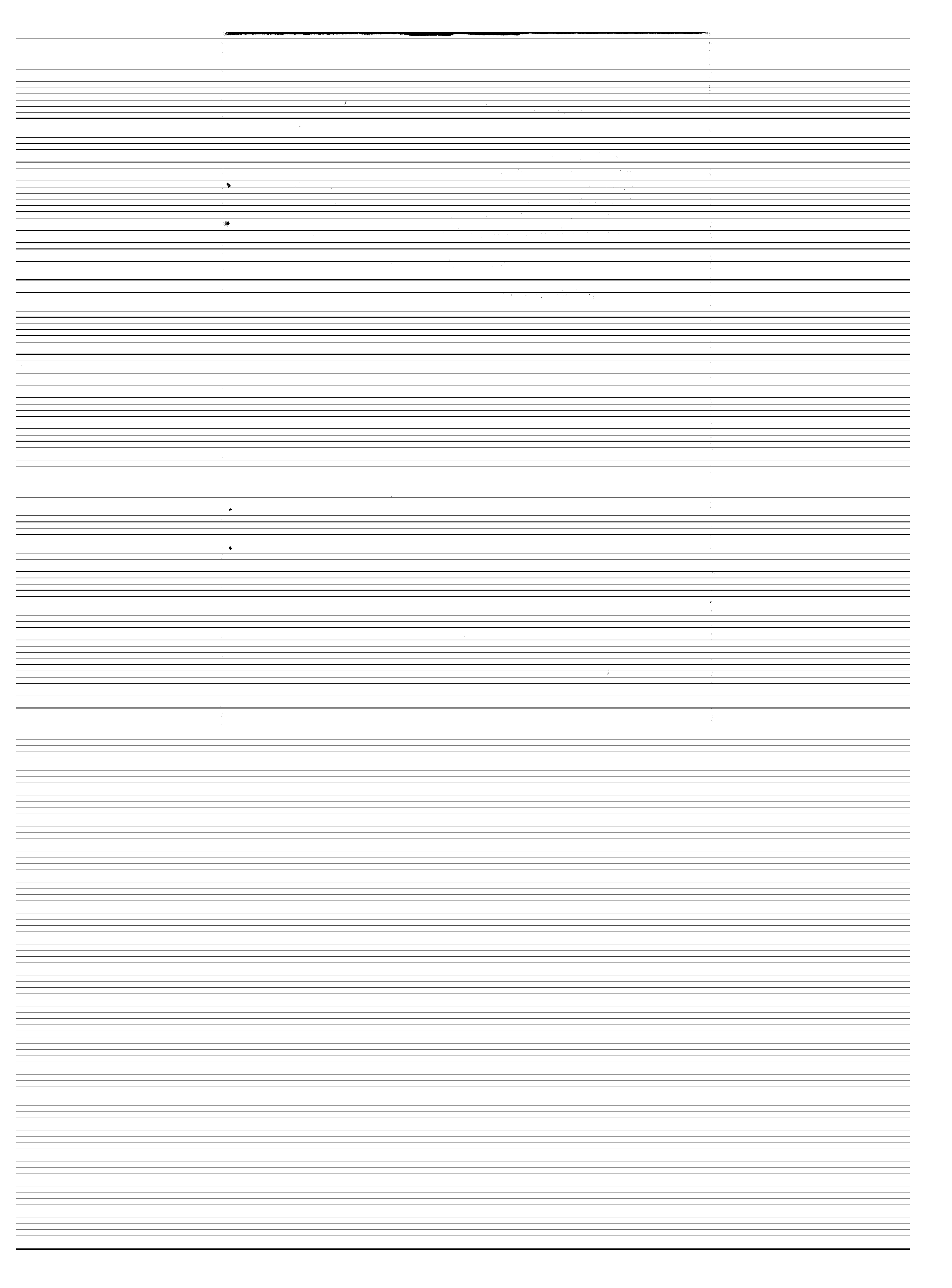
. . .

وهذا الكتاب يروى صفحات مشرقة عطرة من حياة أهل البيت النبوى الكريم ، سادات العباد ، وأنوار الله فى جميع البلاد ٠

كانت حياتهم ـ رضى الله عنهم ـ عطرا فواحا لا يفنى بمرور الزمن ، ولا يذهب ريحه الطيب الزكى بتوالى الحقب والأيام ، انما هو عطر خالد باق نستروحه فى كل حين فنجد أنه هو العطر الفواح الذى تهدأ به النفس ، وينشرح له الصدر ، ونستقبل به الحياة ـ فى دفاعنا عن الحق . وذودنا عن المبادىء الشريفة ـ أحسن الاستقبال ٠ وما أحرانا أن نقتبس من منهجهم القويم ، وطريقهم المستقيم فى الحياة ما يوصلنا الى خير الدنيا والآخرة ٠

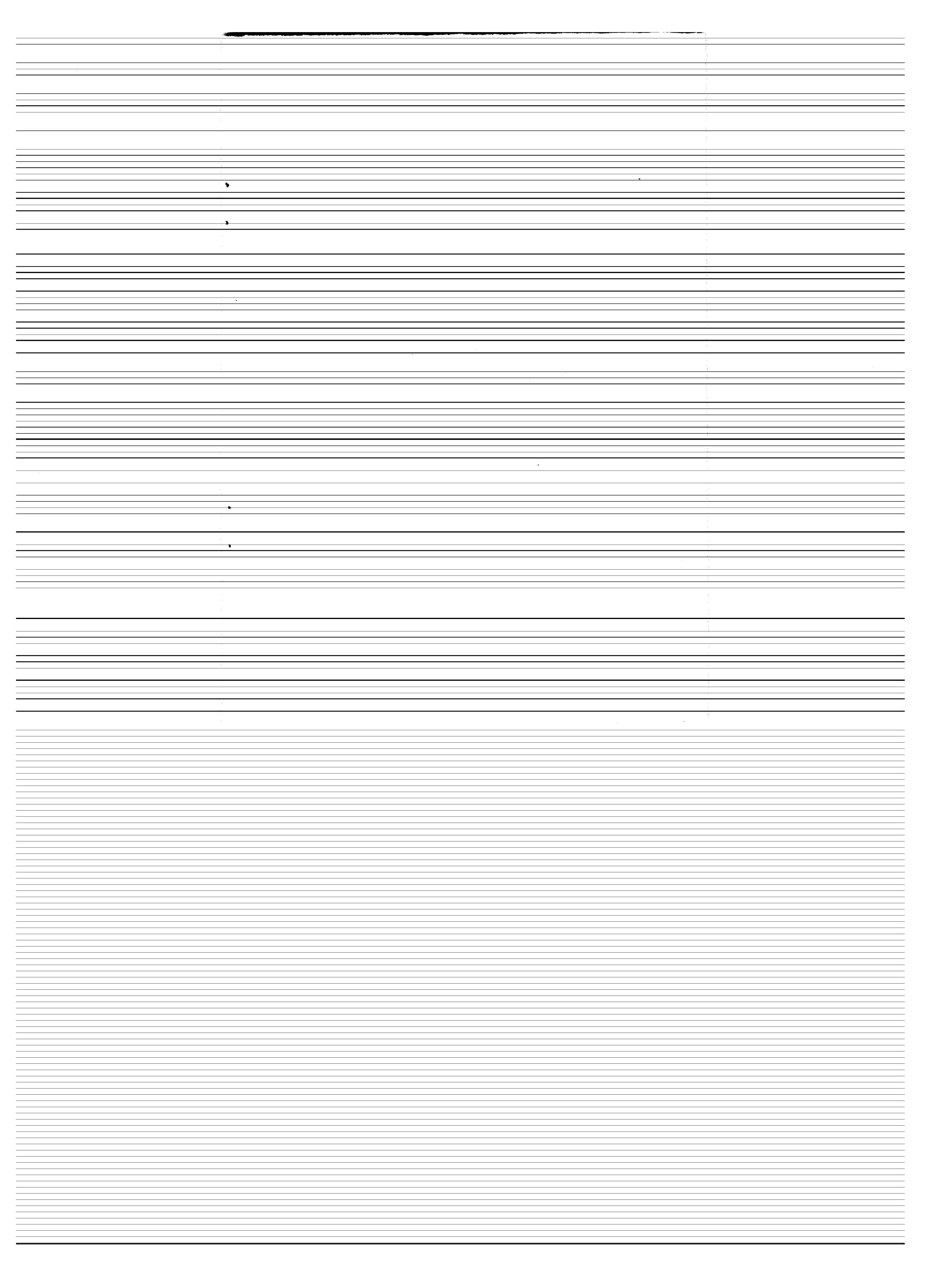
والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق ٠

محمود على الشرقاوى



حمزة بن عبد المطلب

أسد الله وأسد رسوله



- ١ -

كان عبد المطلب بن هاشم من أشراف قريش ، ولكنه يمتاز عـن قومه بالكثير من الوقار وميل الى الدين ، يعظم ما كان قومه يعظمون مـن تلك الآلهة ، ولكن عن اخلاص وصدق • وقد أتيحت له أشياء زادته امتيازا عن قومه ، فهو قد احتفر بئر زمزم •

وهو لم يحتفرها من ذات نفسه ، وانما رأى فى المنام من يأمره باحتفارها وحدد له مكانها ، فأقبل على صنع ما أمر به حتى أتمه •

وقد وجد كنزا فى أثناء احتفار البئر قبل أن يصل الى الماء فنازعته فيه قريش فجعله للكعبة ، ولم يأخذ هو ولا غيره منه شيئا • ثم انبعث الماء فنازعته فيه قريش ترى أن البئر لها ويرى هو أنها له لأنه احتفرها بيده وانبعث ماؤها بجهده وكده •

وأمعنت قريش فى الخصومة ، حتى أجمعوا رأيهم على الاحتكام الى أحد الكهان فأوفدوا مع عبد المطلب وفدا يخاصمونه الى ذلك الكاهن ، غير أنهم لم يحتاجوا الى هذا الاحتكام لأن آية ظهرت لهم فى الطـريق أقنعتهم أن عبد المطلب ليس كاذبا ولا متكلفا •

وفى أثناء هذه الخصومة شعر عبد المطلب أنه وحيد ليس له من ولد ينصرونه فنذر لئن رزق عشرة منهم ليقربن أحدهم الى الآلهة •

وقد رزق عشرة من الولد ، فأراد أن يقرب أحدهم ، وهم بذلك ولكـن قريشا رفضت ذلك ، وما زالت به حتى أقنعته بأن يقرع بين ابنه وبين عشرة من الابل فجعـل كلما اقرع خرج السهم على ابنـه حتى بلغت الابل مائة فقربها الى الآلهة ونجا ابنه ذاك الفتى عبدالله ، على أن عبدالله الذى افتداه أبوه بالابل فأغلى فى الفداء لم يعمر طويلا ، وانما زوجه أبوه آمنة بنت وهب ثم أرسـله للتجـارة فى الشـام ، فذهب ولم يعد أدركه الموت بيثرب فى عودته ، وقد ولد له بعد موته صبى هو الذى اختاره الله تعـالى ليـأتى الانسانية بدين الحق •

وقد توفي عبدالله وحمزة بن عبدالمطلب في السادسة من عمره · فشب وهو يسمع من أهله أخبار أخيه الذى عصفت به يد المنون وهو فى ريعان الشباب على صورة محزنة في يثرب بعيدا عن أهله وزوجه · فلما بلغ حمزة مبلغ الادراك كان من أرق الناس لابن أخيه اليتيم ، وكان يؤثره بالحب والمودة لما رأى منه كرم خلق ، وصفاء نفس ، ونقاء قلب ، فجمع الله بين قلبيهما برباط قوى متين ·

كان حمزة بن عبد المطلب يكبر محمدا بأربع سنوات ، فلم تكن الصلة بينهما صلة العم بابن أخيه بل صلة الصديق بالصديق · وقد ترعرعا معا ، وكان ألمهما مشتركا لما مات عبد المطلب · فقد ذاق حمزة مرارة أول يتم ، أما محمد فقد تجرع فى صمت مرارة الألم للمرة الثانية ، فيتمه بعد عبد المطلب كان أقسى من يتمه بعد آمنة · وقد جمع اليتم بين قلبيهما · وقد انصرف محمد منذ السن الباكرة الى ما هيأه الله له من الرعى والتجارة ، فى حين انصرف حمزة الى تلقى العلم ليكون سيداً من سادات بنى هاشم ، وقد كان جل بنى هاشم يجيدون القراءة والكتابة ·

كان محمد يصطفى حمزة ، ويفضى اليه بذات نفسه قبل أن ينزل عليه الوحى ويبعثه الله نبيا للعالمين · ولما عرضت السيدة خديجة بنت خويلد نفسها على محمد ليتزوجها ، كان حمزة أول أهله سعيا فى اتمام هذا الزواج ، ولما كانت خديجة تفوق نساء قريش نسبا وأعظمهن شرفا وأكثرهن مالا ، كان كل قومها حريصا على الزواج منها لو يقدر عليه · قد سر ذلك حمزة ، وشرع يعين محمدا عليه ، فخرج معه حتى دخل على عمها عمرو بن أسد فخطبها اليه وظل بعد ذلك صديقا له وصفيا لايكاد محمد يفعل شيئا حتى يحدث فيه حمزة · ومضت الأيام فى طريق الزمن ونزل الوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم فى غار حراء ، يأمره بالدعوة الى الاسلام · وقام محمد رسول الهدى بأداء الرسالة ، يدعو الناس الى نبذ عبادة الأوثان ، والايمان بالله الواحد القهار ، فلم يلق الا شرا ونكرا من الذين ران على قلوبهم ، وغشيت أبصارهم عن الحق · ولكنه مضى فى الدعوة الى الدين الجديد لم يهن ولم يضعف · وبينما كان الرسول الأعظم يعمل جاهدا على نشر الدعوة ، ويتعرض للأذى ، كان حمزة سادرا فى لهوه البرىء من الصيد ·

كان محمد صلى الله عليه وسلم يتخذ لنفسه بين الحين والحين مجلسا عند الصفا يدعو الناس فيه الى دين الحق ، ويجادلهم بالتى هى أحسن ، فاذا لم يجتمع اليه أحد انفرد بنفسه يتأمل فى خلق السموات والأرض ، ويفكر فى شأنه ٠ وبينما هو جالس ذات يوم مر به أبو جهل ، فراح يسب من سفه أحلامهم وعاب دينهم ، ثم صب التراب على رأسه وجارية من دار عبدالله بن جدعان تسمع وتنظر ٠

وانصرف أبو جهل الى نادى قريش وانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أن ينبس بكلمة ٠

وظلت مولاة عبدالله بن جدعان تسرح الطرف فيما حولها ، حتى اذا ما رأت حمزة بن عبد المطلب مقبلا متوشحا بسيفه راجعا من قنصه متجها الى الحرم ليطوف بالبيت قبل أن يعود الى أهله ، تأهبت لتقص على حمزة ما كان بين أبى جهل ومحمد بن عبدالله ٠

ومر عليها حمزة فقالت له :

ـ يا أبا عمارة لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمد من أبى الحكم بن هشام ! وجده ها هنا جالسا فآذاه وسبه وبلغ منه مايكره ، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد ٠

فسار حمزة نحو الحرم وهو حانق ٠ وما كاد يقطع فى الطريق خطوات حتى لحقت به مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب وقالت له :

ـ ان أبا الحكم بن هشام صب التراب على رأس محمد وألقى عليه فرثا ! !

فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد فرأى أبا جهل جالسا فى القوم ، فاقبل نحوه حتى قام على رأسه ورفع القوس وضربه فشجه شجة منكرة ، ثم قال :

ـ أتشتمه ؟ فأنا على دينه أقول ما يقول ، فرد على ذلك ان استطعت ٠

فقال أبو جهل :

ـ سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا ٠

فالتفت حمزة الى القوم وقال في حدة :

– ومن أسفه منكم ؟ تعبدون الحجارة من دون الله · أشهد أن لا اله الا الله، وأشهد أن محمدا رسول الله ·

فقامت رجال من بني مخزوم الى حمزة لينصروا أبا جهل فقالوا :

– ما نراك الا قد صبأت !

– وما يمنعني وقد استبان لي منه ·· أنا أشهد أنه رسول الله وأن الذي يقول حق · والله لا أنزع فامنعوني ان كنتم صادقين ·

فقال لهم أبو جهل :

– دعوا أبا عمارة ، فاني والله قد اسمعت ابن أخيه شيئا قبيحا ·

ورجع حمزة الى بيته وراح يفكر فيما كان بينه وبين أبي جهل ، انه ثار لابن أخيه وأعلن اسلامه في نوبة من نوبات غضبه ، فــراح الشــيطان يوسوس له :

– « أنت سيد قريش ، اتبعت هذا الصابيء وتركت دين آبائك · الموت خير لك مما صنعت » · واستشعر الرجل الشجاع الذي لا يخشى الردى خوفا يلفه وحيرة تكتنفه ، وحاول أن ينام ولكن لم يطف الكرى بعينيه ، انه في قلقه وأرقه ، وفي جوف الليل ، راح يبتهل الى الله في حرارة :

– اللهم ان كان راشدا فاجعل تصديقه في قلبي ، والا فاجعل لي مما وقعت فيه مخرجا ·

وراح حمزة يغدو ويروح في الغرفة يحاول أن يستفتي قلبه مرة ، ويصيخ سمعه الى همزات الشيطان مرة · ويبتهل الى الله مرات أن يدركه برحمته ويلقي في عين بصيرته نورا يرى به الصراط المستقيم · أنه أقــر على المــلأ بوحدانية الله ورسالة ابن أخيه · وقد كان اعلانا حركته عصبية لأبي القاسم أخيه في الرضاعة ، وابن أخيه ورفيق الصبا والشباب وحبيب الفؤاد ، الا أنه لما خلا بنفسه قامت هواجسه تهاجمه في قسوة · وعنف · وراح ينقب عن جوهر الحقيقة ، فما كان يحب أن يخدع نفسه ، أو أن يكون منافقا في عين ذاته ، انه يبغي الحق ولا شيء غير الحق ·

وبات حمزة بليلة لم يبت بمثلها ، راح فيها يستعرض حياة ابن أخيــه

فلم يجد فيها مثلبا ، فهو الأمين الذى لم يجرب عليه الكذب قط ، انه لم لم يكذب على الناس أو يكذب على ربه ؟

انه يحسن الحسن ويقويه ويقبح القبيح ويوهيه ، له نور يعلوه كأن الشمس تجرى فى وجهه ، قد أوتى الحكمة · قد خرج من سلطان نفسه فلا يغضب لها بل يغضب للحق · انها صفات لاتجتمع الا فى انسان يعد لرسالة عظمى ، وان ابن عبدالله كفء لحمل أعظم رسالة ·

ولما أسفر الصباح غدا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ـ يابن أخى انى قد وقعت فى أمر لا أعرف المخرج منه ، واقامة مثلى على مالا أدرى أرشد هو أو غى شديد

وقص على ابن أخيه قصته ، فراح محمد صلى الله عليه وسلم يذكره ويعظه ويخوفه ويبشره ويتلو عليه القرآن · وحمزة مأخوذ بما يسمع يستشعر كأن أسجافا ترتفع عن قلبه وأن نورا يشرق فى عين ذاته وأن حديث رسول الهدى يرتفع به عن عالمه المحدود الى عوالم من الرفعة والسمو والنور ·

وألقى الله فى قلبه الايمان فقال فى فرح :

ـ أشهد أنك لصادق ، فأظهر يابن أخى دينك ·

وسر رسول الله صلى الله عليه وسلم باسلام فارس قريش سرورا عظيما ، فقد أعز الله الاسلام بأشد قريش شكيمة ، وأحس أن آلام الاضطهاد الذى تحمله سنوات طويلة قد أثمرت خير ثمرة · فبات يرحب بكل عذاب وشدة وهو على ثقة من أن الله سيتم نوره ولو كره الكافرون ·

وأنزل الله تعالى فيما كان من حمزة رضى الله عنه وأبى جهل :

« أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون · وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون الا بأنفسهم وما يشعرون · واذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسول الله ، الله أعلم حيث يجعل رسالته سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون · فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء · كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون · وهذا صراط ربك مستقيما قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون » ·

كان اسلام حمزة بداية عهد جديد فى تاريخ الدعوة الاسلامية ، فقـــد بدأت قلوب بنى عبد المطلب ترنو الى محمد وتطالع بقية قريش بالعداوة . ولم يشذ عن اجماعها فى تأييد محمد ونصرته الا أبو لهب بن عبد العزى ، وكان خامل التفكير ، ضيق الصدر وكان يقول : يعدنى محمد أشياء لأراها ، يزعم أنها كائنة بعد الموت . فماذا وضع فى يدى بعد ذلك ؟ ثم ينفخ فى يديه ويقول : تبالكما ما أرى فيكما شيئا مما يقول محمد ! وكان يجد نفســـه سعيدا اذ تؤكد له امرأة مثل هند بنت عتبة أنه نصر اللات والعزى بهـذا الجهل المطبق .

وبدأ الخوف يسرى فى قلب قريش لهذا الموقف الذى يقفه بنو عبد المطلب منها بعد اسلام حمزة ، وأخذت سادات قريش يتمثلون الخطر الزاحف من جراء هذا الانفصال ، ولم يعد فى امكانهم أن يستصغروا أمر محمد أو يعدوا عليه بالسخرية والمهانة كما كانوا يفعلون ، لأنهم أصبحوا يخشون غضب حمزة وأمثاله من الرجال الصناديد الذين حفلت بهم الدعوة الاسلامية .

وأوفدوا له عتبة بن ربيعة ، فقال للرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ يا ابن أخى ، انك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة ، والمكان فى النسب ، وأنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، ودينهم وكفرت به من مضى من آبائهم . فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر منها لعلك تقبل منها بعضها .

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ قل يا أبا الوليد أسمع .

قـال :

ـ يا ابن أخى ان كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وان كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك ، وان كنت تريد ملكا ملكناك علينا . وان كان هذا الذى يأتيك رئيا (١) تراه لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه

---

(١) الرئى : ما يتراءى للانسان من الجن .

أموالنا حتى نبرئك منه ، فانه ربما غلب التابع (١) على الرجل حتى يدارى منـه ٠

حتى اذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه قال :

– أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعـم ٠

قال : فاسمع منى

قال : أفعـل

فقال الرسول :

– « بسم الله الرحمن الرحيم ٠ حم ٠ تنزيل من الرحمن الرحيم ٠ كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ٠ بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا اليه(٢) » ٠٠ ثم مضى الرسول الكريم فيها يقرؤها عليه ٠ فلما سمعها منه عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمدا عليها يسمع منه ، ثم انتهى الرسول الكريم الى السجدة منهـا فسجد ٠ ثم قال :

– قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك ٠

فقام عتبة الى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض :

– نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ٠

فلما جلس اليهم قالوا :

– ما وراءك ياأبا الوليد !

قال :

– ورائى انى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هـو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ٠ يامعشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى

---

(١) التابع : من يتبع من الجن .
(٢) سورة فصلت ٠

سمعت منه نبأ عظيم ، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وان يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به ٠

قالوا :

ـ سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ٠

قال :

ـ هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم ٠

٠ ٠ ٠

أخـذ الاسلام ينتشر بمكة فى قبائل قريش من الرجال والنساء ٠ كانت فاطمة بنت الخطاب وزوجة سعيد بن زيد قد أسلمت ، وأسـلم بعـدها سعيد بن زيد وهما مستخفيان باسلامهما عن عمر بن الخطاب ٠ وعرف عمر أن أخته وزوجها قد أسلما فذهب الى بيتهما ، وحين اقترب من البيت سمع خباب بن الارت يقرأ القرآن ، فلما دخل عمر قال :

ـ ماذا أسمع ؟

قالا له : ما سمعت شيئا ٠

قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه ٠

وبطش بزوج أخته سعيد بن زيد ، فقامت اليه أخته فاطمة لتكفه عـن زوجها فضربها فشجها ٠ فلما فعل ذلك قالت له أخته وزوجها :
ـ نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما تريد ٠

فلما راى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى ، وقال لأخته :

ـ أعطيني هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا ، أنظر ما هذا الذى جاء به محمد ، فلما قرأ عمر صدرا من سورة طه ، قال :

ـ ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ٠

فلما سمع ذلك خباب خرج اليه ، فقال له :

ـ ياعمر ، والله انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فانى سمعته أمس وهو يقول : « اللهم أيد الاسلام بأبى الحكم بن هشـام ، أو بعمر بن الخطاب » فالله الله يا عمر ٠

فقال له عمر :

ـ دلني ياخباب على محمد حتى آتيه فاسلم ،

فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه نفر من أصحابه ٠

فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب الرسول فنظر من ثقب الباب فرآه متوشحا سيفه ، فرجع الى الرسول وهو فزع خائف ، فقال :

ـ يارسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحا بالسيف ٠

فقال حمزة بن عبد المطلب :

ـ فاذن له ، فان كان يريد خيرا بذلناه له ، وان كان يريد شرا قتلناه بسيفه ٠

فقال الرسول :

ـ ائذن له ٠

فأذن له الرجل ، ونهض الرسول حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ يجمع ثوبه ثم جذبه جذبة شديدة ، وقال :

ـ ما جاء بك يا ابن الخطاب فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة ٠

فقال له عمر :

ـ يا رسول الله ، جئتك لأومن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ٠

فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب الرسول أن عمر قد أسلم ، فتفرق أصحاب الرسول من مكانهم ، وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع اسلام حمزة وعرفوا أنهما سيمنعان الرسول ، وينتصفون بهما من عدوهم ٠

ولكن بنو عبد الدار لم يكن يرضيهم هذا ، اذ كانوا سادة في قريش ، يحسدون بني عبد المطلب على ما عسى أن يكون لهم من المكانة الرفيعة بهذا الرجل الذي نبغ فيهم وكانوا أذكياء لا يكاد يفوتهم صدق ما يدعو اليه محمد

وخطره ،فأخذوا يجمعون صفوفهم ، ويثيرون من استطاعوا من بطون قريش، ومضوا يجادلون محمدا يريدون أن يصرفوا الناس عنه بالمنطق كما كسبهم الى دعوته بالمنطق فلم يفلحوا ، وزاد الاسلام انتشارا ، ثم كان اسلام عمر بن الخطاب وما أعقبه من اشتداد أذى قريش للمسلمين ، فكان حمزة وعمر درعي الرسول يردان عنه الباغي ٠

مضى على الاسلام أربعة عشر عاما والرسول الاعظم في مكة بين أعـداء الحق ، ومعه على بن أبي طالب وأبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب ٠ وأما باقي الصحابة فقد تركوا ديارهم وعشيرتهم وهاجروا الى الحبشة أو المدينة حيث الأمن والهدوء ٠ وكان الموقف حرجا ، فأعداء الحياة الجديدة الطاهرة التي يدعو اليها محمد يتآمرون على الرسول ، وطلب أبو بكر من الرسول الخروج الى المدينة فأجابه الرسول بأن الله لم يأمـر بذلك بعد ٠ واجتمع المتآمرون في دار الندوة للتشاور فيما يصنعونه بمحمد رسول الهدى ، فاقترح بعضهم أن يحبس في الحديد ، وأن يغلقوا عليـــه بابا ثم يتربصون به ما أصـــاب الشـعراء الذين كانوا قبـــله ، ولـكن هذا الرأى لم يلق سمعا ، فقال آخر : نخرجه من بين أظهرنا وننفيـــه من بلادنا ، ثم لانبالى بعد ذلك من أمره شيئا ، ولكنهم خافوا أن يلحق بالمدينة ، فيحرض أهلها عليهم ، بما له من قوة الاقناع ، فيقصدوهم ويبطشوا بهم ٠ واقترح أبو جهل أن يأخذوا من كل قبيلة فتى شابا جليدا ، وأن يعطوا كل فتى سيفا بتارا ، فيضربوه جميعا ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه بين القبائل ولا يقدر بنو عبد مناف على قتالهم جميعا ، فيرضون بالدية ، وتستريح قريش من هذا الذى بدد شملها ، وفرق قبائلها شيعا ، فاستقر رأيهم على هـذا الاقتراح بالاجماع ٠

وبينما كانت قريش تأتمر بالرسول الأعظم ، نزل عليه الوحى ، وأخبره بما يدبر له وأمره ألا ينام فى فراشه تلك الليلة ٠ فأرسل الى على بن أبى طالب كرم الله وجهه وأسر اليه أن ينام فى فراشه ٠ وأمره أن يتخلف بعده بمكة ، حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس ثم يلحق به ٠

وفى المدينة المنورة آخى محمد رسول الهدى بين حمزة بن عبد المطلب وبين مولاه زيد ، فكان حمزة فخورا بأخيه هذا ، وكان هذا آية من آيات الاسلام، الذى يقرر أن الناس سواسية كأسنان المشط ٠ ولو قد تطلع مولى الى أخوة حمزة فى الجاهلية لعد حمزة ذلك مهانة لا يكاد يمحوها دم ، ولكن الاسلام نور ٠ والنور اذا ملأ القلوب أزال نوازع الجهل والعصبية جميعا ٠

استقر أمر الرسول في المدينة ، وآتاه الله من عون أهلها ونصر من هاجر اليها من أهل مكة ما مكنه من السير بحكومتها وأهلها في الطريق السوى ، حتى اذا استقر أمر الاسلام ، واطمأن الرسول على المؤمنين ، وجد الفرصة سانحة ليبدأ مع قريش ذلك الصراع العنيف الذى انتهى بنصر الاسلام وانتشاره في الجزيرة العربية كلها .

وهنا أتيحت الفرصة لحمزة بن عبد المطلب للعمل . وكان حمزة فارسا شجاعا لا يرهب القتال ، ومحاربا قويا . وكان قد لبث ينتظر الفرصة المواتية طوال فترة الدعوة السلمية الماضية ، فلما آن الأوان للاسلام لينتقل الى دور جديد ، دور الكفاح الايجابي حان الوقت ليفيد من حمزة .

وكان الرسول الأعظم يعرف من هم رجاله ، وما هي الملكات التي يتمتعون بها ، ولذلك عهد الى حمزة قيادة أول سرية اسلامية ، فكان حمزة بهذا أول قائد مسلم ، وأول سلسلة طويلة من القادة العظام الذين حملوا لواء الاسلام جيلا بعد جيل ، ومضوا بالعقيدة الكريمة موفقة منصورة في مشارق الأرض ومغاربها .

عقد الرسول أول راية في الاسلام لفارس قريش حمزة بن عبد المطلب ، وأمره على ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترضوا عيرا لقريش عائدة من الشام . وكان الرسول يهدف من هذه « الداورية » المسلحة التي عرفت باسم «السرية» مجرد الاستطلاع واشعار قريش بقوة المسلمين وتأهبهم لنضال خصومهم . وكان الرسول يتوقع أن يدفعهم حرصهم على أموالهم الى أن يفهموا أن مصلحتهم تقتضيهم التفاهم مع أهلهم الذين هاجروا الى المدينة تفاهما يقى الطرفين شر العداوة والبغضاء ويكفل للمسلمين حرية الدعوة الى الاسلام والحج الى البيت العتيق ويضمن لأهل مكة في نفس الوقت سلامة تجارتهم وأموالهم في طريقها الى الشام .

بعث الرسول حمزة في هذه السرية ليلقى رأس المعاندين أبا جهل بن هشام عند العيص من شاطىء البحر لعل أبا جهل يرتدع عن غيه ، ويكف عن هذا السفه الذى كان لايزال يلقى به المسلمين قبل الهجرة ، وهذه القسوة التى يعامل بها من بقى منهم في مكة بعد هجرة الرسول الى المدينة .

ومما لا شك فيه أن الرسول لم يكلف حمزة القتال ، ولو أمره به لقاتل فلم يكن حمزة بالذى يخشى ثلاثمائة قرشى أيا كان العدد الذى معه قليلا ، اكتفى بارهاب أبي جهل وقريش معه . وقبل وساطة مجدى بن عمر الجهنى وعاد الى المدينة .

لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم داعية حرب ، بل كان داعية سلام ٠

كانت دعوة الرسول سلمية رفيقة لأنها حق ، وللحق مع هدوئه صولة تبدو مشرقة رحيمة ولكنها لقيت خصومة باطلة عنيدة ٠

ويبدأ الصراع بين الحق والباطل ٠٠ بين الهدى والضلالة ٠

ومضت قريش في اضطهادها للمسلمين ، فوقفت عقبة في سبيل نشر الدين، ومنع المسلمين من الدخول الى مكة لأداء فرائض حجهم ، لذلك فكر الرسول في القيام بعمل ايجابي ضد مصالح قريش حتى تشعر بقوة المسلمين وقدرتهم على أن يحيقوا بها الضرر لعل هذا العمل يكشف العصائب عن عيون قريش، فترجع عن غيها ، ويدفعها الى محاولة التفاهم مع المسلمين ٠ وكانت بداية الصراع خروج الرسول الأعظم لاعتراض قافلة كبيرة على رأسها أبو سفيان وهي في طريقها الى الشام ، ولكن الرسول لم يتمكن من ادراكها فأعد العدة لملاقاتها في أثناء عودتها ٠ وحتى لاتفلت القافلة عند عودتها أرسل الرسول طلحة بن عبيدالله وسعيد بن زايد لاستطلاع أمرها ، فنزلا عند قبيلة جهينة بالحوراء وما كادت القافلة تمر بها حتى أسرعا الى الرسول الكريم ليفضيا اليه بخبر القافلة ٠

وكان خبر خروج الرسول لاعتراض القافلة في رحلتها الى الشام قد انتشر بين الناس ، ووصل هذا الخبر الى أبي سفيان بن حرب وهو يقترب بقافلته في طريق الحجاز ، وحذره بعض الأعراب من احتمال المفاجأة عند بدر ، ولذلك عزم على طلب النجدة من أهل مكة ٠ فبعث ضمضم بن عمرو الغفاري الى مكة ليستنفر قريشا ويخبرها بالخطر الذي يهدد قافلتها ٠

وقد أبلغ ضمضم هذا الخبر الى قريش بطريقة مثيرة ألهبت مشاعر الناس ، اذ قطع أذني بعيره ، وجدع أنفه ، ودخل الى مكة وقد شق قميصه وأخذ يصيح :

– يا معشر قريش ٠ اللطيمة ! اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا أدري أن تدركوها أولا ٠ الغوث ٠ الغوث ٠

وانتهز أبو جهل هذه الفرصة لاستنفار قريش لقتال المسلمين ، فمضى يخطب الناس عند الكعبة ويصيح في جموعهم كي يخرجوا لانقاذ قافلتهم ٠

تقدم المسلمون من موقعهم بوادى زفران في طريقهم الى بدر ، وكانت الأنباء قد وصلتهم باقتراب قافلة أبي سفيان ، فلما وصلوا بدرا ، كانت القافلة قد فاتتهم ولم يعد هناك مناص من قتال جيش قريش . وأرسل أبو سفيان الى قائد جيش قريش يقول له :

ــ « انكم قد خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فأرجعوا » .

ولقي هذا الرأى استجابة لدى كثير من رجال قريش ، ولكن أبا جهل ما كاد يسمع هذا القول حتى ثار ، ومار في قلبه الحقد الأسود الذى يكنه للرسول فصاح :

ــ والله لا نرجع حتى نرد بدرا فنقيم عليه ثلاثا ننحر الجزور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها .

وثار الخلاف بين رجال الجيش ، فريق يحبذ الرجوع الى مكة بعد نجاة القافلة ، وفريق آخر يرى أنه لابد من القتال . وانتهى الخلاف بعودة بني زهرة فقط الى مكة وتحرك جيش قريش الى بدر ...

وعلى أثر قدوم المسلمين الى بدر تقدم الرسول صوب الماء ، حتى اذا جاء أدنى مكان منه نزل فقال الحباب بن المنذر :

ــ يا رسول الله أهذا منزل أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخره ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟

فأجاب الرسول :

ــ بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

فقال الحباب :

ــ يا رسول الله ، ان هذا ليس لك بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزل ثم نغور ما وراءه من القلب ثم نبني حوضا ونملأه ماء فنشرب ولا يشربون ثم نقاتلهم .

ونفذ الرسول فكرة الحباب حين اتضح له صواب رأيه .

خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي من صفوف المشركين ، وقال يسخر من المسلمين :

– أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو لأموتن دونه ٠

وكان الحوض من وراء المسلمين ، يحسب أن أحدا منهم لن يجرؤ على الوقوف في طريقه ، وأنه يخترق صفوفهم آمنا أو كالآمن ٠ فما هو الا أن برز من الصفوف حتى تقدم له فارس الاسلام حمزة بن عبد المطلب وضربه بالسيف ضربة قطعت ساقه ، فوقع على الأرض تقطر ساقه دما ، وبلغ به العتو أن أراد الزحف برغم ذلك حتى يصل الى الحوض ليهدمه ، فلم يمهله حمزة رضى الله عنه وأجهز عليه ٠ كل ذلك ورجال قريش ينظرون فى ذهول الى هذا الرجل الشجاع حمزة ، الذى يقف كالأسد ، يدافع عن عقيدته فى بطولة فذة ٠ وبدأ رجال قريش يفهمون أن الأمر جد لا هزل فيه ٠ وأن معركة رهيبة على وشك أن تقوم ، وليست المسألة نزهة جميلة يشرب فيها الخمر وتعزف القيان ٠

وخرج عتبة بن ربيعة سيد قريش وأخوه شيبة وابنه الوليد ، يتحدون المسلمين ليبرزوا لهم من يجرؤ على الخروج من رجالهم ٠ فأراد بعض الأنصار الخروج لهم ، فرفضوا مبارزتهم فى شيء من الصلف ، وأبوا أن يبارزوا الا قريشيين ٠ فندب الرسول عبيدة بن الحارث وحمزة بن عبد المطلب وعلى بن أبى طالب فبرزوا لهم ٠

ومشى عبيدة وكان أسن الثلاثة الى عتبة ، واتجه حمزة الى شيبة ، وبارز على الوليد ، ومد الجيشان الأبصار وقد حبست الأنفاس ، فالجولة الأولى كانت بين أبناء العم سادات عبد شمس وصناديد بنى هاشم ٠ وغدت الدعوات ترفرف على شفاه المهاجرين والأنصار بعد أن ابتهلت بها الأفئدة التى عمرت بأنوار اليقين ٠ فلو قتل عبيدة وحمزة وعلى فى أول لقاء لكانت فاجعة الرسول فيهم تعز عن العزاء ٠

وكان أبو بكر الصديق ينظر خافق القلب وقد لفته رهبة ، بينا كان عمر ابن الخطاب يختلس النظرات الى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يرصد القتال فيستشعر ثقل مرور اللحظات ويتمنى من كل وجدانه أن ينتصر رجال بنى هاشم ليسعد عليه الصلاة والسلام بنصر المسلمين ونجاة الأحباب ٠

ولم يمهل فارس قريش حمزة أن قتل شيبة فأشرقت وجوه المسلمين بالأمل وبسرت وجوه الكافرين ، وسرعان ما قتل على بن أبى طالب الوليد

واختلف عبيدة وعتبة بينهما بضربتين كلاهما أثبت صاحبه ، ووقعت الضربة فى ركبة عبيدة فأصاحت رجله وصار مخ ساقه يسيل ، ثم مال حمزة وعلى على عتبة فقتلاه واحتملا صاحبهما فجراه الى أصحابه فأضجعوه الى جانب موقعه فأفرشه رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمه ، فوضع خده عليهـا وقـال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

– ألست شهيدا يا رسول الله ؟

– أشهد أنك لشهيد ٠

ودارت معركة رهيبة وتهاوت السيوف ، وهجم المسلمون هجمة المؤمن الصادق لا يكاد شيء يرده عن سبيله ٠ وخرج الرسول الى الناس فحرضهم على القتال فقال :

– والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا ، مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة ٠

وكان حمزة بن عبد المطلب قد علم نفسه بريشة نعامة ثبتهـا فى صدره ، فكان طوال المعـركة كالأسد الضارى لا يكاد يثبت فى مكان ، لا يرى واحدا من كبار المشركين الا انقض عليه انقضاض الصاعقة وأجهز عليه ، ولا يرى واحدا من اخوانه المسلمين الا خف لنجدته وأعانه على عدوه ، حتى روع المشركين بنجدته وأوقع الرعب فى قلوبهم ٠

روى عبد الرحمن بن عوف أنه أسر أمية بن الخلف وابنـه واقتادهما الى صفوف المسلمين ، وانه لسائر بينهما اذ سأله أمية :

– من الرجل منكم المعـلم بريشة نعامة فى صدره ؟

فقال عبد الرحمن :

– ذلك حمزة بن عبد المطلب ٠

فقال أميـة :

– ذلك الذى فعل بنا الأفاعيل ٠

أسفرت معركة بدر عن انتصار رائع للمسلمين ، نصر دخل به الاسـلام فى دور التوسع ٠ وانصرف من بقى من المشركين الى مكة وهم يشـعرون أن يوم قريش قد دنا وأن جماعة فيها أسود من طراز حمزة بن عبد المطلب ، وعلى بن أبى طالب لن تغلب على أمرها أبدا ٠

مضت قريش تستعد ليوم تبلغ فيه ثارها ، وجعل رجالاتها يمشون الى بعض يدبرون لهذا الأمر عدته • وجمعوا أموالا هائلة حتى لم يعد أحد منهم رجلا كان أو امرأة - الا ساهم في العدة بنفسه أو بماله • وخرج رجالهم وكماتهم وخلفهم الظعائن يشدون أزرهم ويحرضونهم على القتال ثأرا لمن لقى مصرعه في معركة بدر من بعولتهن أو أبنائهن أو أخواتهن • وكانت هند بنت عتبة أشد نساء قريش دعوة لهذا الثأر ، اذ لقى أبوها وأخواها مصارعهم في بدر • وكان قلبها يمور بالحقد على حمزة •• بطل بدر والذى فعل بقريش ورجالها الأفاعيل •

وكانت موقعة أحد وما حدث فيها من مخالفة رماة المسلمين لما قرره الرسول صلى الله عليه وسلم من خطة للمعركة ، كانوا خمسين رجلا يرمون بالنبل يقودهم عبد الله بن جبير وضعهم الرسول في مخرم من مخارم جبل أحد ليحموا ظهور المسلمين من أن يفاجئهم المشركون من الخلف ، ثم التقى الجمعان وأبدى كماة المسلمين من الشجاعة ما يفوق الوصف ، وكان حمزة سيفا من سيوف الله لا يلقى مشركا الا صرعه •

وراحت هند بنت عتبة والنسوة اللائي معها يضربن بالدفوف خلف الرجال ويقلن :

نحن بنات طارق
نمشى على النمارق
مشى القطا النوازق(١)
والمسك في المفارق
والدر في المخانق
ان تقبلوا نعانق
ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق
فراق غير وامق

ووقف وحشى مولى جبير بن مطعم خلف شجرة وفي يده حربته يرصد حركات حمزة بن عبد المطلب وصوت ابن مطعم يداعب خياله :

- ان قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق •

---

(١) الخفاف •

انها رمية من حربته تستقر في قلب حمزة ثم يسترد بعدها حريته • فراح يتبع حمزة بعينيه في كره وفره ، انه يحصد الناس بسيفه ويمشي اليهم كالأسد قد كشر عن أنيابه ، فينقض على فريسته وان هي الا ضربة واحدة فيتركه كأمس الدابر وهو يقول :

ـ أنا أسد الله ، أنا ابن عبد المطلب •

وضرب حمزة رجلا ضربة أطاحت برأسه ، فانكمش وحشي وهو في مكمنه ، فحمزة قتل ثلاثين من قريش وحده ، ولو التفت ناحية الشجرة وخطر له أن يتربص به لانقض عليه انقضاض الصاعقة وقتله قبل أن يستمتع بحـريته •

وهز وحشي الحربة في يده وصوبها الى حمزة ، وقبل أن يطلقها كان حمزة قد التفت الى سباع بن عبد العزى فقال له :

ـ أقبل يا بن مقطعة البظور •

كانت أمه أم أنمار مولاة شريق والد الأخنس ختانة مكة ، وكان سباع يعادي الله ورسوله وكان من المكذبين ، فشد حمزة عليه ورفع سيفه وهوى به فـاذا بسباع في مثل لمح البصر يسقط على الأرض وقد سالت دماؤه يلفظ آخر الأنفاس •

وتقاصرت نفس وحشي فقد كان سباع تمـام واحد وثلاثين قتلهم حمزة ، انه يقاتل بين يدي رسول الهدى بسيفين ويقول : أنا أسد الله •

وملأ الخوف قلب وحشي وبات يخشى أن تنتهي المعركة بهزيمة قريش دون أن ينال من حمزة فيظل يرسف في أغلال العبـودية ، فجعل يرصده في غدواته وروحاته بين صفوف المشركين لعـل فرصة تسنح له فيقتل فيها حمزة ويسترد حريتـه •

وكر فرسان قريش على المسلمين فاذا بالنبال تتطاير من الرماة الذين أسندوا ظهورهم الى جبل أحد لتستقر في أعين الخيل أو في رقاب الفرسان وصدورهم، فانجفل الفرسان مرتدين ليتفرقوا في الوادي ليصبحوا هدفا لأسياف حمزة وعلي والزبير وأبي دجانة وصناديد المسلمين •

وارتفعت الأصوات تجلجل عند أحد ، المسلمون يهتفون :

ـ أمت ••• أمت •

وقد استبشروا بنصر الله ، والمشركون يهتفون :

– يا للعزى ! يا لهبـل !!

والنسوة من قريش يحمسن الرجال بالدفوف ، وأقبل حمزة بن عبد المطلب وقد شهر سيفيه ليقاتل بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول :

– أنا أسد الله .

فبينا هو كذلك اذ عثر عثرة وقع منها على ظهره فانكشف الدرع عن بطنه ، فلاحت لوحشى الفرصة التى كان يرصدها مذ نشب القتال فى بطن أحـــد ، فهز حربته دفعا عليه فاذا بها تنفذ من تحت سرته لتخرج من بين رجليـــه

وندت عن حمزة صرخة مكتومة ونظر فرأى وحشى خلف الشجرة فحمل نفسه حملا لينطلق اليه يريد أن يقتل ذلك العبد الحبشى الذى غدر به ، ولكنـــه عجز عن مواصلة السير فوقع على الأرض وهو يلهث .

ورفع رأسه لينظر فاذا بجبل أحد يدور فى الفضاء . واذا بالمدينة البعيـــدة يطبق عليها الظلام ، واذا بأصوات المسلمين التى كانت تدوى كالرعد .. أمت . أمت .. تخفت ولم يعد يرى بعينيه ولكنه كان يرى ببصيرته أول يوم أعلن فيه اسلامه ، يوم أن ذهب الى أبى جهـل وشجه بقوسه وهو فى مجلسه عند الكعبة لما سمع أن أبا جهل قد أساء الى ابن أخيه . وكان يرى صناديد قريش يوم بدر لما كانوا يتهاوون جثثا هامدة تحت ضربات سيفه البتار ، وغاب عن الدنيا بينما كانت أصوات عذبة تنسحب فى أذنيه تبشره بجنـات عرضها السموات والأرض ، فاذا بأساريره تنبسط واذا بروحه تعود الى ربهـــا راضية مرضية .

وجاءه وحشى وقد سكن روعه فأخذ حربته ثم انتحى الى المعسكر ولم يكن له فى شىء حاجة غـيره .

وأسفرت المعركة عن هزيمة المسلمين .

وراح أبو سفيان يضرب فى شدق حمزة بن عبد المطلب بزج الرمح ويقول :

– ذق عقق .

ومر الحليس سيد الأحابيش بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمـــزة فاستنكر ما يفعل فقال :

– يابني كنانة ، هذا سيد قريش يصنع بابن عمه ما ترون لحما .
فقال أبو سفيان :

– ويحك ، أكتمها عني فانها كانت زلة .

وجاء وحشي الى هند بنت عتبة فقال لهـا :

– ماذا لي ان قتلت قاتل أبيك ؟

– سلبي .

فاخبرها أنه قتل حمزة فتهللت أساريرها وأعطته ثيابها وحليها ، وكان في ساقيها خدمتان (خلخالان) من جزع ظفار (بلد باليمن) وأساور وخواتيم في أصابع رجليها ثم قالت :

– اذا جئت مكة فلك عشرة دنانير .

ووقفت ترنو الى وحشي في نشوة وفرح ثم قالت :

– أرني مصرعه .

فراحا يجوسان خلال الجثث التي ملأت أرض المعركة حتى اذا ما رأت حمزة قتيلا انقضت عليه وبقرت عن كبده فلاكتها فلم تستطع أن تسيغها فلفظتها .
وجاء نسوة قريش يمثلن بالقتلى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجدعن الآذان والأنف حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خـدما (خلخالا) وقلائد ، ثم علت على صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها:

نحـن جزينـاكم بيـوم بدر
والحرب بعـد الحرب ذات سعر
ما كان عن عتبة لي من صـبر
ولا أخي وعمـه وبكـرى
شفيت نفسي وقضـيت نذري
شفيت وحشي غليـل صدري
فشـكر وحشي على عمـري
حتى ترم أعظمي في قـبري

فأجابتها هند بنت أثاثة بن عباد بن عبد المطلب فقالت :

خـزيت في بـدر وبعد بـدر
يا بنت وقـاع عظيم الكفـر

أقحمك اللـه غداة الغجر

بالهاشميين الطوال الزهر

بكل قطاع حسام يفرى

حمزة ليثى وعلى صقرى

اذا رام شيب وأبوك غدرى

مخضبا منه ضواحى النحر

وندرك السوء فشر نذر

ولم يكن المسلمون يعلمون بمقتل حمزة بن عبد المطلب ، فأرادت هند أن تعلمهم بالنبأ لتشفى غليل صدرها وصرخت بأعلى صوتها :

شفيت من حمزة نفسى بأحد

حتى بقرت بطنه عن الكبد

أذهب ذاك عنى ما كنت أجد

من لذعة الحزن الشديد المعتمد

والحرب تعلوكم بشؤبوب(١) برد

تقدم اقداما عليكم كالأسد

وراح رسول الهدى يسأل :

ــ ما فعل عمى ؟ ما فعل عمى ؟

فخرج الحارث بن الصمة فأبطأ ، فخرج على بن أبى طالب يطلبه فيقول :

يارب ان الحارس بن الصمة

كان رفيقا وبنا ذا ذمة

قد ضل فى مهامه مهمة

يلتمس الجنة فيها ثمة

حتى انتهى الى الحارث ووجد حمزة مقتولا فاعتصر الحزن قلبه وطفرت الدموع الى عينيه ، وأجهش بالبكاء · وعاد على وهو باسر الوجه يحمل نفسه حملا ، حتى اذا أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم عرف الفاجعة فى وجهه فانقبض قلب رسول الرحمة ، وأقبل الرسول حتى وقف على حمزة فوجده قد بقر بطنه ومثل به فجدع أنفه وقطعت مذاكيره ، فنظر صلى الله عليه وسلم الى شىء لم ينظر الى شىء قط كان أوجع لقلبه منه وقال :

---

(١) الشؤبوب : دفعة المطر الشديدة ·

ـ لن أصاب بمثلك أبدا ٠ ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا ٠ رحمة اللـه عليـك فانك كنت ما علمتك فعولا للخيرات وصولا للرحم ٠ أما والله لئن أظفرنى الله تعالى بقريش فى موطن من المواطن لأمثلن بسبعين منهم مكانك ٠

ووضعه فى القبلة ثم وقف على جنازته وانتحب حتى شهق وبلغ به الغشى وراح يقـول :

ـ يا عم رسول الله وأسد الله وأسد رسول الله ٠ يا حمزة يا فاعل الخيرات ٠ يا حمزة يا كاشف الكربات ٠ يا حمزة يا ذات عن وجه رسول اللـه ٠

ولما رأى المسلمون جزع رسول الله على عمه قالوا :

ـ لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحـد من العـرب ٠

علم الله تعالى مدى ما كان عليـه رسول الله صلى الله عليـه وسـلم من الألم والحزن ، وهذا هو الذى دفعه الى الرغبة فى المثـلة بقريش ٠ وسايره أصحابه فى ذلك فأوحى جل شأنه الى رسوله عليه السلام قوله :

ـ **«وان عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين»**

فعفا رسول الرحمة ، وصبر ونهى عن المثلة ٠

وطلعت صفية بنت عبد المطلب ٠ فقال عليه السلام :

ـ يازبير أغنى عنى أمك ٠

فذهب الزبير الى أمه وهو حزين وقال لها :

ـ ياأمه ، ان فى الناس تكشفا فأرجعى ٠

ـ ما أنا بفاعلة حتى أرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وحال الأنصار بينها وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ـ دعـوها ٠

فانطلقت اليه عليه السلام وقالت :

ـ أين ابن أمى حمزة ؟

فقال وهو حزين :

– هو في الناس ٠

– لا أرجع حتى أنظر اليه ٠

ورأت صفية أخاها حمزة وقد مثل به فأحست بسكاكين تمزق أحشاءها ، وجلست عند رسول الله فجعل اذا بكت يبكى ، واذا نشجت ينشج ، وجعلت فاطمة الزهراء تبكي فلما بكت بكى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :

– لن أصاب بمثل حمزة أبدا ٠ وقال : جاء جبريل فأخبرني أن حمزة ابن عبد المطلب مكتوب في أهل السموات السبع « حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله »

وكفن حمزة رضى الله عنه ببردة كانوا اذا مدوها على رأسه انكشفت رجلاه وان مدوها على رجليه انكشفت رأسه ، فمدوها على رأسه وجعلوا على رجليه الاذخر ٠

ثم صلى عليه الرسول ، فكبر سبع تكبيرات ، وكان يؤتى بالقتلى فيوضعون الى حمزة فيصلى عليهم وعليه معهم ، ثم يرفعون ويترك حمزة ثم يجاء بغيرهم فيكبر عليهم سبعا – حتى صلى عليه رسول الله يومئذ سبعين صلاة ٠ ثم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بدفنه مع ابن أخته عبدالله بن جحش ٠

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته بالمدينة فمر بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظفر فسمع البكاء والنواح على قتلاهم ٠ فذرفت عينا الرسول فبكي وقال :

– لكن حمزة لا بواكي له ٠ واستغفر الله ٠

فسمع ذلك سعد بن معاذ فمشى الى دار بني الأشهل وأتى بنسائهم فوقف معهن جميعا على باب رسول الله وقال :

– والله لا تبكين قتلى الأنصار حتى تبكين عم النبى صلوات الله عليه فانه عليه السلام ذكر أنه لا بواكي له ٠

فوقفن يبكين ، فقال لهن الرسول :

– ارجعن رحمكن الله ، لقد واسيتن معى ، رحم الله الأنصار فان المواساة فيهم كما علمت قديمة ٠

ونهى نساء الانصار عن النوح وقال له الأنصار ٠

ــ يا رسول الله بلغنا أنك نهيت عن النوح ، وانما هو شيء نندب به موتانا ونجد فيه بعض الراحة فأذن لنا فيه ٠

فقال الرسول

ــ ان فعلن فلا يخمشن ولا يلطمن ولا يحلقن شعرا ولا يشققن جيبا

★ ★ ★

قالت صفية بنت عبد المطلب تبكي أخاها حمزة رضي الله عنه :

أســائلة أصــحاب « أحد » مخافة
بنـــات أبي من أعجــم وخبير

فقال الخبير ان « حمـزة » قد ثوى
وزير رســول اللـــه خير وزير

دعاه اله الحق ذو العــرش دعــوة
الى جنـــة يحيـــايهـــا وسرور

فـــذلك ما كنـــا نرجي ونرتجي
« لحمزة » يوم الحشر خير مصــير

فوالله لا أنساك ما هبت الصـــبا
بكاء وحـــزنا محضري ومســيري

على « أسد الله » الذي كان مدرها
يذود عن الاســلام كل كفــور (١)

فياليت شلوي عنـــد ذاك وأعظمي
لدى أضـــيع تعتـادني ونسور (٢)

أقــول وقد أعلى النعي عشـــيرتي
جـــزى الله خيرا من أخ ونصـــير

---

(١) المدره : الذي يدفع عن القوم ٠

(٢) الشلو : البقية ــ تعتادني : يتعاهدني ٠

وقال حسان بن ثابت يبكى حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه :

اتعـرف الدار عفـا رسـمها
بعدك صـوب المسيل الهاطل (١)

بين السراديـح فأدمـانة
فمدفـع الروحـاء فى حـائل (٢)

سـألتها عن ذاك فاسـتعجمت
لم تدر ما مرجـوعة السـائل

دع عنـك دارا قد عفا رسـمها
وأبك عـلى حمـزة ذى النائل (٣)

المـالىء الشـيزى اذا أعصـفت
غبراء فى ذى الشبم الماحـل (٤)

والتـارك القـرن لدى لبـدة
يعثر فى ذى الخـرص الذابـل (٥)

واللابس الخيـل اذا أحجمت
كالليث فى غابتـه الباسـل

أبيض فى الذروة من هاشـم
لم يمر دون الحـق بالبـاطل

مـال شـهيدا بين أسـيافكم
شلت يدا وحشى مـن قاتـل

---

(١) عفا : غير ودرس ، ورسمها : أثرها ٠ والصوب : المطر

(٢) السراديح : جمع سرداح ، وهو الوادى ٠ وأدمانة : مكان بعينه ٠ والمدفع : حيث يندفع السيل ، والروحاء : اسم موضع ، وحائل جبل ٠

(٣) النائل : العطاء ٠

(٤) الشيزى : الجفان التى تصنع من خشب الشيز٠وأعصفت : أشتدت٠ والغبراء : التى تثير الغبار وتهيجه ٠ والشبم : الماء البارد ٠ والماحل ـ من المحل ، وهو القحط

(٥) القرن : الذى يقاومك فى القتال ٠ واللبدة : الغبار الملبـد ٠ وذو الخرص : الرمح ، والخرص سنانه ٠ والذابل : الرقيق الشديد ٠

صـــل عليـــه اللـــه في جنة
عاليـــــة مكرمـــ الداخـــــل

كنا نرى حمــزة حـــرزا لنـــا
في كل أمــــر نابنـــا نازل

وكان في الاســــلام ذا تـــدرأ
يكفيك فقـــد القـــاعد الخاذل (١)

لا تفـــرحي يا هنـــد واستجلبي
دمعا وأذرى عبـــرة الثـــاكل (٢)

وأبـــكي على عتبـــة اذ قطـــه
بالسيف تحت الرهج الجائـــل (٣)

اذ خـــر في مشـــيخة منـــكم
من كل عات قلبـــه جاهـــل

أرداهـــم حمـــــــزة في أسرة
يمشون تحت الحلق الفاضـــل (٤)

غـــداة جبريـــــل وزير لـــه
نعم وزير الفـــــارس الحامـــل

* * *

وقال كعب بن مالك يبكي حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه :

ولقـــد هددت لفقـــد حمـــزة هدة
ظلت بنات الجوف منها ترعـــد (٥)

---

(١) ذا تدرأ : يريد أنه كان كثير الدفاع عنا ·
(٢) أذرى : أسكبي واسترخصي · العبرة : الدمعة · الثاكل : المرأة التي فقدت ولدها
(٣) عتبة : هو أبو هند امرأة أبي سفيان بن حرب · وكان حمزة قد قتله في يوم بدر · وقطه : قطعه نصفين · والرهج : الغبار · والجائل : المتحرك الثائر مما أثارته سنابك الخيل وأقدام المتحاربين ·
(٤) أرداهم : أهلكهم · أسرة ، قرابة · الحلق : الدروع · الفاضل : الذي يفضل عن لابسه ويزيد عنه وينجر على الأرض ·
(٥) بنات الجوف : يعني قلبه وما اتصل به مما يشتمل عليه الجوف ·

ولـو أنـه فجعت حـراء بمثـله
لرأيت راسى صـخرها يتبـدد

قرم تمكـن فى ذؤابة هاشـم
حيث النبوة والنـدى والسؤدد (١)

والعاقر الكوم الجـلاد اذا غـدت
ريح يكد المـاء فيهـا يجمـد (٢)

التـارك القـرن الكمى مجـدلا
يوم الكريهة والقنـا يتقصـد (٣)

وتراه يرفـل فى الحـديد كأنه
ذو لبـدة شـنن البراثن أربد (٤)

عم النبى محمـد وصـفيه
ورد الحمـام فطاب ذاك المـورد

وأتى المنيـة معلمـا فى أسرة
نصروا النبى ومنهم المستشـهد

ولقـد اخـال بذاك هنـدا بشرت
لتميت داخـل غصـة لا تبرد

---

(١) القرم : السيد الشريف ٠ وذؤابة هاشم : أعاليها ، وأراد أسمى أنسابها وأرفعها ٠

(٢) الكوم : جمع كوماء ، وهى من الابل العظيمة السنام ٠ والجـلاد : القوية ٠

(٣) الكمى : الشجاع ٠ مجدلا : مطروحا على الجـدالة وهى الأرض ٠ ويتقصد : ينكسر

(٤) الحديد : أراد به الدروع ٠ وذو لبدة : الأسد ٠ شنن : غليظ ٠ البراثن للسباع بمنزله الأصابع للناس ٠ الأربد : الأغبر يخـالط لونه سواد ٠

مما صبحنا بالعقنقل قومها
يوما تغيب فيه عنها الأسعد (١)

وببئر بدر اذ يرد وجوههم
جبريل تحت لوائنا ومحمد

حتى رأيت لدى النبى سراتهم
قسمين نقتل من نشاء ونطرد

فأقام بالعطن المعطن منهم
سبعون عتبة منهم والأسود (٢)

وابن المغيرة قد ضربنا ضربة
فوق الوريد لها رشاش مزبد (٣)

وأمية الجمحى قوم ميله
عضب بأيدى المؤمنين مهند (٤)

فأتاك فل المشركين كأنهم
– والخيل تثفنهم – نعام شرد (٥)

شتان من هو في جهنم ثاويا
أبدا ومن هو فى الجنان مخلد

* * *

---

(١) العقنقل : الكثيب من الرمل

(٢) العطن : مبرك الأبل حول الماء ٠ والمعطن : الذى قد عود أن يتخذ عطنا ٠

(٣) الوريد : عرق في صفحة العنق ٠ ورشاش مزبد : يريد دما تعلوه الرغوة ٠

(٤) عضب : سيف قاطع

(٥) الفل : القوم المنهزمون ٠ تثفنهم : تطردهم وتتبع آثارهم ٠

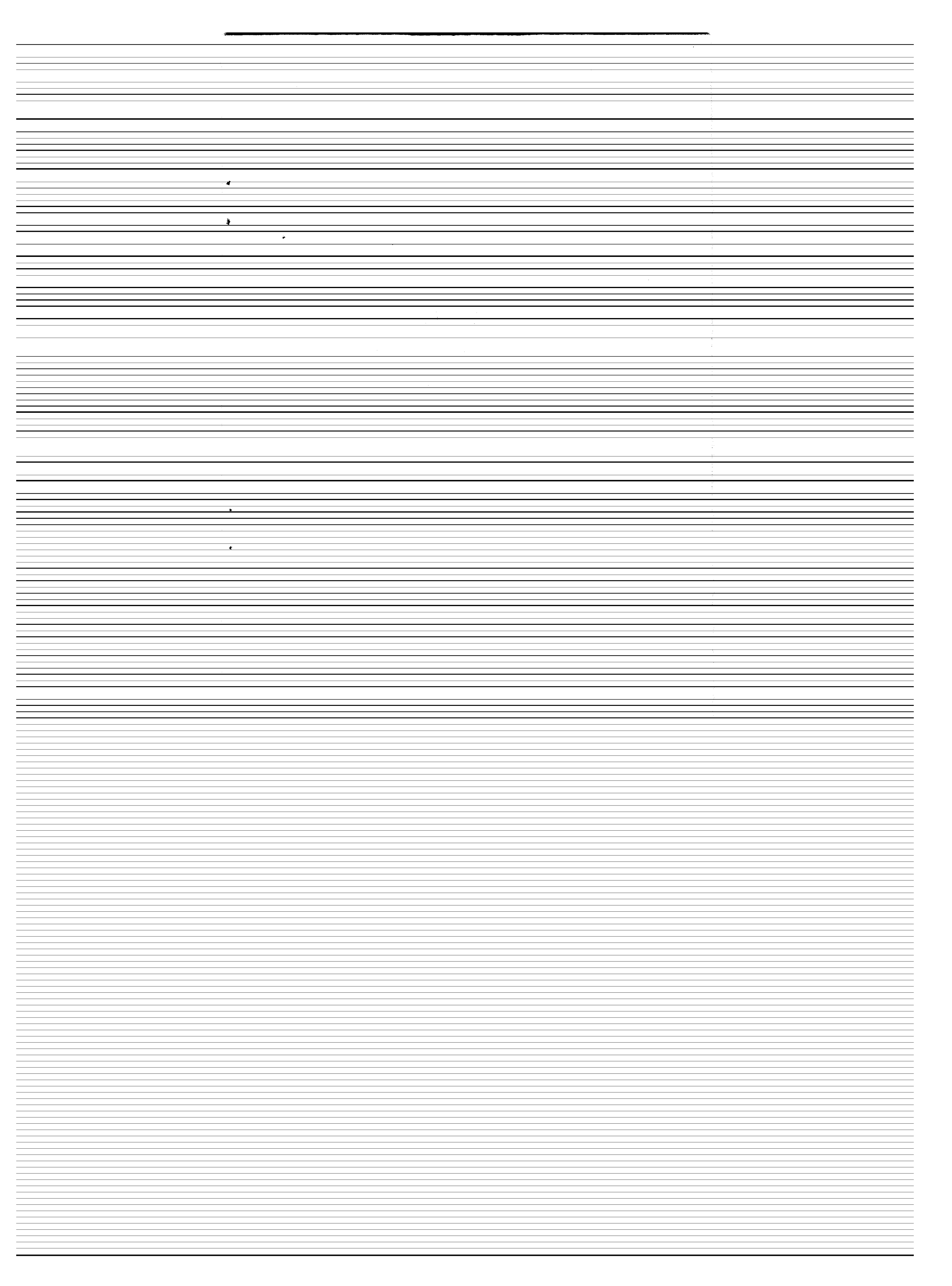
لقد دخل حمزة رضى الله عنه الاسلام منتصفا لمحمد رسول الهدى ، ومات مقاتلا فى سبيل الله تعالى . وقد بلغ من تفانيه فى نصرة دين الحق أن محمدا صلى الله عليه وسلم سماه « أسد الله واسد رسوله » .

وقد عاش فى أقسى فترات الدعوة ، ولم يعرف الحيـــاة منذ أســـلم الا مضطهدا أو مجاهدا ولم يمهله القدر حتى يرى عزة الاسلام بعـــد فتـــح مكة ، وحتى يرى الناس يدخلون فى دين الله أفواجا ، بل لم يمهله القـــدر حتى ينعم بشىء من الراحة لقاء هذا الكفاح المجيد الذى بذل .

ان الله العلى الكبير ادخر له جزاءه كله فى الجنة التى جعلها مثوى لأكرم شهداء المسلمين .

عم الرسول

العباس بن عبد المطلب



كان العباس بن عبد المطلب شريفا ، مهيبا ، جميلا ، وكان من أطـــول الرجال ، وأحسنهم صورة ، وأبهاهم ، وأجهرهم صوتا ، مع الحلم الوافـر والسؤدد ٠

أبوه عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن كلاب بن مرة ، عـم رسول الله ، وصنو أبيه ، وأمه نتيلة بنت جناب بن كليب ، وهى أول عربية كست البيت الحرير والديباج ، وسببه أن العباس ضاع وهو صـــغير ، فنذرت أن وجدته أن تكسو البيت ، فوجدته ، ففعلت ٠

ولد العباس قبل عام الفيل بثلاث سنين ٠

وتزوج العباس من أم الفضل لبابة الكبرى بنت الحارث ٠ وقد رزق منها بعدد من الأولاد ٠ وفى ولد أم الفضل يقول عبدالله بن يزيد الهلالى :

ما ولدت نجيبة من فحـــل ... بجبـــل تعلمه أو ســـهل

كستة من بطون أم الفضل ... أكرم بها من كهلة وكهـــل

كان العباس قبل المبعث رئيسا فى قريش ، واليه كانت عمارة المسجد ، فانه كان لا يدع أحدا يسب فى المسجد ولا يقول فيه هجرا ٠ لا يستطيعون لذلك امتناعا ، لأن ملأ قريش قد اجتمعوا وتعاقدوا على ذلك ، فكانـــوا له أعوانا عليه ٠

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعظمه ويكرمه بعد اسلامه ، وكان وصولا لأرحام قريش ، محسنا اليهم ، ذا رأى سديد ، وعقل راجح ٠

قال النبى صلى الله عليه وسلم له :

« هذا العباس بن عبد المطلب أجود قريش كفا وأوصلها ٠ هذا بقيـــة آبائى » ٠

دخل العباس على الرسول صلى الله عليه وسلم مغضـــبا ، فقـــال : ما أغضبك ؟

فقال : يارسول الله ، مالنا ولقريش ؟ اذا تلاقوا بينهم تلاقوا بوجـــوه مبشرة ، واذا لقونا لقونا بغير ذلك ٠

فغضب الرسول حتى احمر وجهه ، ثم قال :

ـ والذى نفسى بيده ، لا يدخل قلب رجل الايمان حتى يحبكم لله ولرسوله ٠

ثم قال : أيها الناس ، من آذى عمى فقد آذانى ، فانما عم الرجل صنو أبيه ٠

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

« ان الله اتخذنى خليلا كما اتخذ ابراهيم خليلا ٠ ومنزلى ومنزل ابراهيم تجاهين فى الجنة ، ومنزل العباس بن عبد المطلب بيننا مؤمن بين خليلين »٠

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « ان رجلا من الأنصار وقع فى أب للعباس كان فى الجاهلية ، فلطمه العباس ، فجاء قومه فقالوا : والله لنلطمنه كما لطمه ، فلبسوا السلاح ٠

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فصعد المنبر فقال :

ـ أيها الناس ، أى أهل الأرض أكرم على الله ؟

قالوا : أنت ٠

قال : فان العباس منى وأنا منه ، لا تسبو أمواتنا فتؤذوا أحياءنا ٠

فجاء القوم فقالوا : نعوذ بالله من غضبك يارسول الله ٠

وعن ابن عباس :

« ان النبى صلى الله عليه وسلم جعل على العباس وولده كساء ، ثم قال :

« اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة ، لا تغادر ذنبا ٠ اللهم اخلفه فى ولده » ٠

وعن اسماعيل بن قيس بن سعد ، عن أبى حازم ، عن سهل ، قال :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى القيظ ، فقام لبعض

حاجته ، فقام العباس يستره بكساء من صوف ، فقال : اللهم استر العباس وولده من النار ·

وقال صلى الله عليه وسلم :

ـ « استوصوا بالعباس خيرا ، فانه عمي وصنو أبي » ·

وعن عائشة رضي الله عنها ، قالت :

ـ ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يجل أحدا ما يجل العباس أو يكرم العباس ·

روى عنه عبدالله بن الحارث ، وعامر بن سعد ، والأحنف بن قيس ، وغيرهم · وله أحاديث منها :

عن عبدالله بن عباس قال : أخبرني أبي العباس أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله أنا عمك ، كبرت سني ، واقترب أجلي ، فعلمني شيئا ينفعني الله به ، فقال :

ـ يا عباس أنت عمي ولا أغني عنك من أمر الله شيئا ، ولكن سل ربك العفو والعافية ·

وعن عامر بن سعد ، عن العباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ذاق طعم الايمان من رضي بالله ربا ، وبالاسلام دينا ، وبمحمد رسولا » ·

* * *

شهد العباس بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة العقبة ، لما بايعه الأنصار ليشدد له العقد ·

خرج الأنصار من يثرب في حجاج قومهم من المشركين ومعهم البراء بن معرور سيدهم وكبيرهم · وكان البراء في شوق للقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد آمن به قبل أن يراه · وبيناهم في الطريق التفت البراء الى كعب بن مالك وقال له :

ـ اني قد رأيت رأيا ما أدري أتوافقونني عليه أم لا ·

ـ وما ذاك ؟

ـ رأيت أن لا أدع هذه البنية (الكعبة) منى بظهر ، وأن أصلى اليها ٠

ـ والله ما بلغنا أن نبينا صلى الله عليه وسلم يصلى الا الى الشـــام ، وما نريد أن نخالفه

كانت قبلتهم بيت المقدس ، ولكن البراء بن معرور رأى أن البيت العتيق أولى بأن يكون لهم قبلة فقال :

ـ انى أصلى اليه ٠

ـ ولكنا لا نفعل ٠

ولما قدموا مكة قال البراء لكعب بن مالك :

ـ يابن أخى انطلق بنا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أسأله عما صنعت فى سفرى هذا ، فانه والله قد وقع فى نفسى منه شىء لما رأيت من خلافكم اياى فيه ٠

فخرجا يسألان عن الرسول وكانا لا يعرفانه لأنهما لم يرياه قبل ذلك ، فلقيا رجلا من أهل مكة فسألاه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

ـ تعرفانه ؟

ـ لا ٠

ـ فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب ؟

ـ نعم ٠

كانا يعرفان العباس فقد كان لا يزال يقدم عليهم تاجرا ، قال الرجل :

ـ فاذا دخلتما المسجد فاذا هو الرجل الجالس مع العباس ٠

ودخلا المسجد ، ورأيا العباس فراحا يتقدمان اليه ، وغدوا يتفرســان فى وجه الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد خفقت قلوبهما حبا وأملا ، وفطن رسول الهدى الى أنهما قادمان اليه فقال للعباس :

ـ هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟

ـ نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك ٠

ـ الشاعر ؟

وأثلج صدر كعب فرسول الهـدى قد سمع به وبشعره ، وحيـا البراء وكعب الرسول بتحية الاسلام فرد بأحسن منها ، ثم قال البراء :

– يا رسول الله انى قد خرجت فى سفرى هذا وقد هدانى الله الى الاسلام، فرأيت أن لا أجعل هذه البنيه منى بظهر فصليت اليها وخالفنى أصحابى فى ذلك حتى وقع فى نفسى من ذلك شىء ، فماذا ترى يا رسول الله ؟

قال الرسول :

– قد كنت على قبلة لو صبرت عليها ·

فرجع البراء الى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل يصلى مع اخوانه فى الدين الى بيت المقدس ·

وجاء مصعب بن عميرة الى الرسول مشرق الوجه ، ثم راح يخبره بمن أسلم من الأنصار والرسول عليه الصلاة والسلام يصغى اليه وقد غمره السرور ، فقد لاحت تباشير النصر بعد طول الترقب ·

وواعد الأنصار الرسول صلى الله عليه وسلم العقبة ، وكانوا يكتمون من معهم من قومهم من المشركين أمرهم ، وكان فيهم أبو جابر عبدالله بن عمرو بن حرام سيد من ساداتهم فكلموه وقالوا له :

– يا أبا جابر انك سيد من ساداتنا وشريف من أشرافنا ، وانا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطبا للنار غدا ·

وغدوا يدعونه الى الاسلام حتى شهد شهادة الحق وصلى معهم ، وأخبروه بميعاد الرسول صلى الله عليه وسلم ·

وانقضى يوم النضرة الأولى وجاءت الليلة التى واعدوا رسول الله صـلى الله عليه وسلم ، فمكثوا تلك الليلة مع قومهم فى رحالهم حتى اذا مضى ثلث الليل خرجوا من رحالهم لميعاد رســول الله صلى الله عليه وسلم · يتسلل الرجل والرجلان تسلل الخطا مســتخفين لا ينبهون نائمـا ، ولا ينتظرون غائبا كما أمرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ·

واجتمعوا فى الشعب عند العقبة وكانوا ثلاثا وسبعين رجلا وامرأتين :

نسيبة أم عمارة من بنى النجار وأم منيع أسماء بنت عمر بن عدى ·

فما زالوا ينتظرون الرسول صلى الله عليه وسلم حتى جاءهم ومعه العباس بن عبد المطلب ليس معه أحد من الناس غيره ، وكان يثق به في أمره كله ٠

وقد أوقف العباس عليا بن أبي طالب على فم الشعب عينا له ، وأوقف أبا بكر الصديق على فم الطريق الآخر عينا ٠

فلما اجتمعوا كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال :

ـ يا معشر الخزرج ـ وكانت الأوس والخزرج تدعى الخزرج ـ انكم قد دعوتم محمدا الى ما دعوتموه اليه ، ومحمد من أعز الناس في عشيرته ، يمنعه والله من كان منا على قوله ومن لم يكن منا على قوله منعه للحسب والشرف ، وقد أبى محمد الناس كلهم غيركم ، فان كنتم أهل قوة وجلد وبصر بالحرب واستقلال بعداوة العرب قاطبة ، فانها سترميكم عن قوس واحدة ، فارتووا رأيكم ، وائتمروا أمركم ولا تفترقوا الا عن ملأ منكم واجتماع فان أحسن الحديث أصدقه ٠

ـ قد سمعنا مقالتك ، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت ٠

ـ خذ لنفسك ما شئت واشترط لربك ما شئت ٠

ـ أشترط لربي عز وجل أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، ولنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأبناءكم ونساءكم ٠

ـ فاذا فعلنا فما لنا ؟

ـ لكم الجنة ٠

ـ ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل ٠ نبايعك ٠

فأخذ البراء بن معرور بيده صلى الله عليه وسلم ثم قال :

ـ نعم والذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا (نساءنا وأنفسنا) فنحن والله أهل الحرب وأهل الحلقة (السلاح) ورثناها كابرا عن كابر ٠

وبينا البراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال أبو الهيثم بن التيهان :

ـ نقبلك على مصيبة المال وقتل الأشراف ٠

قال العباس : أخفوا جرسكم فان علينا عيونا ٠

قال أبو الهيثم : يا رسول الله ان بيننا وبين الرجـــال (أى اليهود) حبالا « عهودا » وانا قاطعوها ، فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا ؟

فتبسم الرسول صلى الله عليه وسلم ثم قال :

ـ بل الدم الدم والهدم الهدم (١)

وقال العباس بن عبد المطلب :

ـ عليكم بما ذكرتم ذمة الله مع ذمتكم وعهد الله مع عهـدكم فى هـذا الشهر الحرام والبلد الحرام يد الله فوق أيديكم ، لتجـدن فى نصرته ، ولتشدن من أزره ٠

قالوا جميعا : نعم ٠

قال العباس : اللهم انك سامع شاهد ، وان ابن أخى قد استرعـــاهم ذمته واستحفظهم نفسه ، اللهم كن لابن أخى عليهم شهيدا ٠

ثم قال صلى الله عليه وسلم :

ـ أخرجوا الى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما فيهم ٠

فاخرجوا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس ٠ فمن الخزرج أسعد بن زرارة نقيب بنى النجار ، وسعد بن الربيع وعبدالله بن رواحة نقيبا بنى الحارث بن الخزرج ، ورافع بن مالك بن العجلان نقيب بنى زريق ، والبراء ابن معرور ، وعبدالله بن عمرو نقيبا بنى مسلمة ، وعبادة بن الصـــامت نقيب بنى عدى من الخزرج ، وسعد بن عبادة والمنذر بن عمرو نقيبـــا بنى ساعدة ، ومن الأوس أسيد بن حضير نقيب بنى عبد الأشهل ، وسـعد بن خيثمة ورفاعة بن عبد المنذر نقيبا بنى عمرو بن عوف ٠

---

(١) ان طلب دمكم فقد طلب دمى ومنزلكم منزلى ٠

وقال صلى الله عليه وسلم لهؤلاء النقباء :

ــ أنتم كفلاء على غيركم ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي . وأخذ أسعد بن زرارة بيد الرسول صلى الله عليه وسلم وقال :

ــ رويدا ياهل يثرب ، انا لن نضرب الا أكباد الابل الا ونحن نعلم انه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وان اخراجه اليوم مفارقة لجميع العرب وقتل خياركم وأن تعطيكم السيوف ، فاما أنتم قوم تصرون عليها اذا مستكم بقتل خياركم ومفارقة العرب كافة ، فخذوه وأجركم على الله تعالى ، واما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذروه فهو عذر لكم عند الله عز وجل .

وقال العباس بن عبادة :

ــ يا معشر الخزرج هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟ انكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فاذا كنتم ترون أنكم اذا نهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله ان فعلتم خزى الدنيا والآخرة ، وان كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه اليه على ما ذكرت لكم . فهو والله خير الدنيا والآخرة .

ــ رضينا ، ابسط يدك .

فبسط يده صلى الله عليه وسلم وتقدم الرجال للمبايعة .

كان العباس بن عبد المطلب يصغى الى ما يدور بين ابن أخيه عليه الصلاة والسلام والأنصار وهو في دهش من أمر القوم الذين يبايعون على محاربة الأسود والأحمر وعداوة العرب كافة وهم متهللون بالبشر والفرح . كأنما كانوا يدعون الى متعة من متع الحياة .

أكان العباس بن عبد المطلب على دين قومه حقا ، وأنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له ، أم أن العباس قد أسلم سرا وأنه كتم اسلامه نزولا على رغبة ابن أخيه ليكون قلم مخابراته في مكة اذا ما اضطر رسول الهدى يوما الى أن يهاجر من مكة ؟

ان زوجه أم الفضل أسلمت بعد أن حدثتها خديجة مباشرة حديث الملك الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم بغار حراء ، وقد ظلت العلاقة طيبة بين أم الفضل والعباس بعد ذلك . ترى أكانت أم الفضل ترضى أن يبقى العباس على كفره وأن تظل على حبها اياه واجلاله ؟ واذا ما حرم

الاسلام فيما بعد أن تظل الزوجة المسلمة مرتبطة بزوجها الكافر ، أتهجر أم الفضل العباس أم تظل في بيته ؟!

* * *

مضت الارستقراطية القرشية سادرة في غيها ، تؤذى النبى والذين آمنوا معه ، فهاجر المسلمون الى المدينة المنورة معقل الاسلام وملجـا جمـاعة المسلمين • وهناك أسس الرسول الدولة الاسلامية لتكون حصنا للمسلمين وقاعدة انطلاق لنشر راية التوحيد •

كانت مكة غارقة في صمت عميق • وكانت عاتكة بنت عبد المطلب غارقة في النوم فرأت عمة الرسول رؤيا أفزعتها فبعثت الى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له :

– يا أخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتنى وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة ، فأكتم عنى ما أحدثك •

فأقبل عليهـا العباس فقالت :

– لن أحدثك حتى تعاهدنى أن لا تذكرها فانهم ان سـمعوها آذونا وأسمعونا مالا نحب • فعاهدها العباس فقال لها : ما رأيت ؟

– رأيت راكبا أقبل على بعيرك حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته ، ألا فانفروا يالغدر مصارعكم في ثلاث ، ثم مثـل به بعيره على رأس أبى قبيس فصرخ بمثلها • ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوى حتى اذا كانت بأسفل الجبل أرفضت (تفتت) ، فما بقى بيت في بيوت مكة ولا دار الا دخلت منها فلقة •

– والله ان هذه لرؤيا ، وأنت فاكتميها ولا تذكريها لأحد •

ثم خرج العباس فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صـديقا فذكرها له ، واستكتمه اياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة ففشا الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش في أنديتها • فغدا العباس ليطـوف بالبيت وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا عاتكة ، فلما رآه أبو جهل قال :

– يا أبا الفضل اذا فرغت من طوافك فأقبل علينا •

فلما فرغ أقبل حتى جلس معهم فقال أبو جهل :

– يا بنى عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية ؟

ـ وما ذاك ؟

ـ تلك الرؤيا التى رأت عاتكة ٠

ـ ما رأت ؟

ـ يا بنى عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ، لقد زعمت عاتكة فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث : فسنتربص بكم هذه الثلاث فان يك حقا ما تقول فسيكون ٠ وان تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شىء نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب ٠

ولم يستطع العباس أن يفعل شيئا الا أن ينكر رؤيا عاتكة ، ثم تفرقا فلما جاء المساء وذاع فى دور بنى عبد المطلب ماكان بين العباس وأبى جهل لم تبق امرأة من بنى عبد المطلب الا أتت العباس فقالت :

ـ أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع فى رجالكم ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم لم يكن عندك غيرة لشىء مما سمعت ٠

فقال العباس :

ـ قد والله فعلت ما كان منى اليه من كبير ، وأيم الله لأتعرضن له فان عاد لألفينكنه ٠

فغدا العباس فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وهو حديد مغضب يرى أنه قد فاته من أبى جهل أمر يجب أن يدركه منه ، فدخل المسجد فرآه فمشى نحوه ليتعرضه ليعود لبعض ما قاله فيقع به ، وكان رجلا خفيفا حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر ، فاذا به يخرج الى باب المسجد يشتد فقال العباس فى نفسه :

ـ ما له لعنه الله ! أكل هذا فرق منى أن أشاتمه !

واذا هو قد سمع ما لم يسمع العباس : صوت ضمضم بن عمرو الغفارى وهو يصرخ ببطن الوادى واقفا على بعيره ، قد جدع بعيره (قطع أنفه) وحول رحله وشق قميصه وهو يقول :

ـ يامعشر قريش ، اللطيمة اللطيمة (الابل التى تحمل البر والطيب) أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها ٠ الغوث ! الغوث !

فشغل العباس عن أبى جهل وشغل أبا جهل عن العباس ما جاء من الأمر وكانت معركة بدر ، بين كتيبة الايمان ، وقوى الشرك والظلام ، أبلى فيها

المسلمون بلاء عظيما ، وتساقطت رءوس المشركين تحت ضربات سيوف كتيبة الايمان ·

قال الرسول صلى الله عليه وسلم لأصحابه :

ـ انكم قد عرفتم أن رجالا من بنى هاشم وغيرهم قد أخرجوا اكراها لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقى العباس بن عبد المطلب فلا يقتله ، ومن لقى أبو البخترى بن هشام فلا يقتله · كان أبو البخترى ممن لا يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم ، وهو بمكة ، وكان ممن قام فى نقض الصحيفة الظالمة ورفع الحصار الذى ضربته قريش على بنى عبد المطلب وبنى هاشم لمناصرتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم · فلماذا ذكر العباس دون غيره من بنى هاشم ؟

أكان العباس قد أسلم وكتم اسلامه ليكون عينا على قريش ؟

فقال أبو حذيفة بن عتبة :

ـ أيقتل آباؤنا وأبناؤنا وأخواننا وعشيرتنا ويترك العباس ؟ لئن لقيته لألجمنه بالسيف ·

رأى أبو حذيفة مقتل أبيه عتبة بن ربيعة وعمه شيبة وأخاه الوليد فهزته المأساة على الرغم من صدق ايمانه فقال مقالته ، فلما بلغت رسول الله قال لعمر بن الخطاب :

ـ يا أبا حفص ، أيضرب وجه عم رسول الله بالسيف ؟

فقال عمر فى تأثر وانفعال :

ـ يارسول الله ، دعنى أضرب عنقه بالسيف ، فوالله لقد نافق ·

فكان أبو حذيفة يقول :

ـ ما أنا بآمن من تلك الكلمة التى قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفا الا أن تكفرها عنى الشهادة ، فقتل يوم اليمامة شهيدا ·

لم يدع الرسول ابن الخطاب يضرب عنق أبى حذيفة ، فقد بلغ الرسول أربه باعلان أنه لن يرضى عن قاتل العباس ، ولو كان العباس كافرا ما أهتم

به رسول الهدى الذى بعث بالحق كل هذا الاهتمام ، ولكنه كان عليه السلام يخشى أن يقتل مظلوما وأن يفقد عينه فى مكة ٠

ساق المسلمون أسرى المعركة من المشركين ، ووقف ذكوان بن عبد قيس يحرس الأسارى ، وبات رسول الله تلك الليلة ساهرا فقال له أصحابه :

ـ مالك لاتنام يارسول الله ؟

ـ سمعت أنين العباس(١) فى وثاقه ٠

فقام رجل فأرخى من وثاقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ مالى لا أسمع أنين العباس ؟

فقال رجل من القوم :

ـ انى أرخيت من وثاقه شيئا ٠

قال رسول الهدى :

ـ فافعل ذلك بالأسارى كلهم ٠

وفى الصباح ٠٠ قال الرسول للعباس :

ـ يا عباس أفد نفسك وابن أخيك عقيل بن أبى طالب ونوفل بن الحارث وحليفك عتبة بن عمرو فانك ذومال ٠

ـ يارسول الله انى كنت مسلما ولكن القوم استكرهونى ٠

ـ الله أعلم باسلامك ، أن يك ما تذكر حقا فالله يجزيك به ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافد نفسك ٠

وكان الرسول قد أخذ منه عشرين أوقية من ذهب ، فقال العباس :

ـ يا رسول الله احسبها من فداى ٠

---

(١)روى عكرمة مولى ابن عباس عن أبى رافع قال : كنت غلاما للعباس ابن عبد المطلب ٠ وكان الاسلام قد فشا فينا أهل البيت فأسلم العباس وأسلمت أم الفضل زوجه ٠ وكان العباس يهاب قومه ويكره خلافهم فكان يكتم اسلامه ٠

ـ لا ، ذلك شيء أعطاناه الله منك .

ـ فانه ليس لى مال .

قال الرسول : فأين المال الذى وضعت بمكة حين خرجت عند أم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ، ثم قلت لها ان أصبت فى سفرى هـــذا فللفضل كذا وكذا ولعبد الله كذا وكذا ؟

قال العباس : والذى بعثك بالحق ما علم بهذا أحد غيرى وغيرها ، وانى لأعلم أنك رسول الله . ففدى العباس نفسه وابن أخيه وحليفه .

★ ★ ★

أراد العباس الهجرة من مكة الى المدينة ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : « مقامك بمكة خير » كان من بمكة من المسلمين يتقوون به ، وكان يكتب الى الرسول أخبار المشركين .

ولذلك كان الرسول يقول له : « ياعم ، أقم مكانك الذى أنت به فان الله تعالى يختم بك الهجرة كما ختم بى النبوة » .

ثم هاجر العباس الى النبى صلى الله عليه وسلم ليكون له الثواب الذى يستحقه بعد كل ما أدى للاسلام من خدمات فى الخفاء ، فلم تعد هنـــاك حاجة لخدماته وقد أصبح فتح مكة على الأبواب .

وخرج العباس فى غفلة من قريش بعياله مهاجرا فلقى الرسول بالجحفة، فاستقبل عليه السلام عمه وقد غمره الفرح فقال :

ـ هجرتك ياعم آخر هجرة .

ونال العباس الجزاء الأوفى ورجع معه عليه الســلام الى مكة ليكون له فضل الجهاد الى فضل الاسلام والهجرة . وأرسل أهله ومتاعه الى المدينة حتى اذا ما نزل المسلمون بمر الظهران وأوقدوا النيران رق قلب العباس لأهل مكة وقال :

ـ واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأمنوه انه لهلاك قريش الى آخر الدهر .

فجلس العباس على بغلة رسول الله صلى الله عليه وسلم البيضاء فخرج

عليها والسنة النيران تتراقص وسار على ضوئها حتى جاء الاراك . والتقى بأبي سفيان بن حرب .

فقال له : هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس قد جاءكم بمالا قبل لكم به .

فقال أبو سفيان في يأس :

ــ واصباح قريش ! والله ، فما الحيلة فداك أبي وأمي ؟

ــ والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب في عجز هذه البغلة حتى آتيك رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمنه لك .

فركب أبو سفيان خلف العباس فجاء به حتى مر على نيران عمر بن الخطاب وكان على الحرس .

فقال : من هذا ؟

وقام الى العباس ، فلما رأى أبو سفيان على عجز الدابة قال :

ــ أبو سفيان ! عدو الله ، الحمد لله الذي أمكن منك من غير عقد ولا عهد .

ثم راح يشده نحو رسول الله ، فركضت البغلة فسبقته وراح عمر يعدو خلفها ، ودخل العباس على الرسول ، ودخل عمر في أثره ، فقال وهو يلتقط أنفاسه :

ــ هذا أبو سفيان وقد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ، فدعني لأضرب عنقه .

فقال العباس : يارسول الله اني قد أجرته .

فعاد عمر يقول لرسول الله عليه السلام : دعني لأضرب عنقه .

فقال العباس في غضب :

ــ مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلت مثل هذا . ولكنك قد عرفت أنه من رجال بني عبد مناف .

فقال عمر :

ـ مهلا يا عباس · فوالله لاسلامك يوم أسلمت كان أحب الى من اسلام الخطاب لو أسلم · وما بى الا أنى قد عرفت أن اسلامك كان أحب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم من اسلام الخطاب لو أسلم ·

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ اذهب به يا عباس الى رحلك فاذا أصبحت فأتنى به ·

وفى الصباح آمن أبو سفيان بدعوة الاسلام ، وشهد شهادة الحق ·

ودخل الرسول والذين آمنوا معه مكة ترفرف عليهم رايات النصر المبين·

* * *

سمع المسلمون بعد فتح مكة مباشرة بتجمعات لعرب هوزان من ثقيف ، ومعها بنو نصر ، وبنو جشم ، وبنو سعد بن بكر ، وبنو هلال ··

فأمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج لقتالهم ، فخرج على رأس أصحابه ، مهاجرين وأنصارا ، وانضم اليهم من آل مكة ، الذين أسلموا حديثا وكان مجموع الجيش اثنى عشر ألفا · ولما استقبل المسلمون وادى حنين انحدروا فى واد من أودية تهامة ، وكان القوم قد سبقوهم الى هذا الوادى ، فكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه ، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا ، فما راعهم الا الكتائب قد شدت عليهم شدة رجل واحد ، واستقبلوهم بالنبل كأنهم جراد منتشر ·

وانهزم الناس أجمعون ، وانشمروا لايلوى أحد على أحد ، وانحاز الرسول ذات اليمين ، ثم قال :

ـ أين أيها الناس ، هلموا الى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبدالله ·

وانطلق الناس ، الا أنه قد بقى مع الرسول نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته ·

وقال الرسول :

ـ يا عباس ، اصرخ ، يامعشر الأنصار يا أصحاب السمرة ·

فنادى العباس ، يامعشر الأنصار ، يامعشر أصحاب السمرة !

فأجابوا : لبيك ! لبيك !

وتجمع الناس من جديد ٠٠ وانتصر المسلمون بفضل ثبات الرسول والفئة القليلة التي أحاطت به ٠ وفي ذلك نزل قوله تعالى :

« لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ٠ ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين ٠ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم ٠ يأيها الذين آمنوا انما المشركون أنجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم (١) » ٠

* * *

ومات الرسول صلى الله عليه وسلم وهو عنه راض ، وكان الصحابة يعرفون للعباس فضله ، ويقدمونه ويشاورونه ويأخذون برأيه ٠

واستسقى عمر بن الخطاب بالعباس رضى الله عنه عام الرمادة لما اشتد القحط ٠

فسقاهم الله تعالى به ، فأخصبت الأرض ٠ فقال عمر : هذا والله الوسيلة الى الله ، والمكان منه ٠

وقال حسان بن ثابت :

سأل الامام وقد تتابع جدبنا
فسقى الغمام بغرة العباس

عم النبى وصنو والده الذى
ورث النبى بذاك دون الناس

أحيا الاله به البلاد فأصبحت
مخضرة الأجناب بعد اليأس

---

(١) سورة التوبة : ٢٥ ـ ٢٨ ٠

ولما سقى الناس طفقوا يتمسحون بالعباس ، ويقولون : هنيئا لك ساقى الحرمين ٠

ولما كثر المسلمون فى عهد عمر ضاق بهم المسجد ، فاشترى عمر ما حول المسجد من الدور الا دار العباس بن عبد المطلب وحجر أمهات المؤمنين ، فقال عمر للعباس :

ـ يا أبا الفضل ، ان مسجد المسلمين قد ضاق بهم ٠وقد ابتعت ماحوله من المنازل نوسع به على المسلمين فى مسجدهم الا دارك وحجر أمهات المؤمنين٠ أما حجر أمهات المؤمنين فلا سبيل اليها ، وأما دارك فبعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين أوسع بها فى مسجدهم ٠

فقال العباس :

ـ ما كنت لأفعل ٠

قال عمر :

ـ اختر منى احدى ثلاث : اما أن تبيعنيها بما شئت من بيت مال المسلمين ، واما أن أخططك حيث شئت من المدينة وأبنيها لك من بيت مال المسلمين ، واما أن تتصدق بها على المسلمين ٠

ـ لا ، ولا واحدة منها ٠

ـ اجعل بينى وبينك من شئت ٠

ـ أبى بن كعب ٠

فانطلقا الى أبى بن كعب فقصا عليه القصة ، فقال أبى :

ـ ان شئتما حدثتكما بحديث سمعته من النبى صلى الله عليه وسلم ٠

فقالا : حدثنا ٠

قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ان الله أوحى الى داود أن ابن لى بيتا أذكر فيه ٠ فخط له هذه الخطة ، خطة بيت المقدس ، فاذا تربيعها بيت رجل من بنى اسرائيل ، فسأله داود أن يبيعه اياه فأبى، فحدث داود نفسه أن يأخذه منه ، فأوحى الله اليه أن يا داود أمرتك أن تبنى لى بيتا أذكر فيه ، فأردت أن تدخل فى بيتى الغصب وليس من شأنى

الغصب ، وان عقوبتك أن لاتبنيه ، قال : يارب فمن ولدى ؟ قال : من ولدك.
فأخذ عمر بمجامع ثياب أبى بن كعب ، وقال :

ــ جئتك بشيء فجئت بما هو أشد منه ، لتخرجن مما قلت ٠

فجاءه يقوده حتى أدخله المسجد فأوقفه على حلقة من أصحاب رسول الله ، فيهم أبو ذر الغفارى فقال :

ــ انى نشدت الله رجلا سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يذكر حديث بيت المقدس حين أمر الله داود أن يبنيه ألا ذكره ٠

فقال أبو ذر : أنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وقال آخر : أنا سمعته ٠

وأقبل أبى على عمر فقال :

ــ يا عمر أتتهمنى على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

فقال عمر : يا أبا منذر لا والله ما اتهمتك عليه ، ولكنى كرهت أن يكون الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ظاهرا ٠

والتفت عمر للعباس وقال : اذهب فلا أعرض لك فى دارك ٠

قال العباس :

ــ أما اذ فعلت فانى قد تصدقت بها على المسلمين أوسع بها عليهم فى مسجدهم ، فأما وأنت تخاصمنى فلا ٠

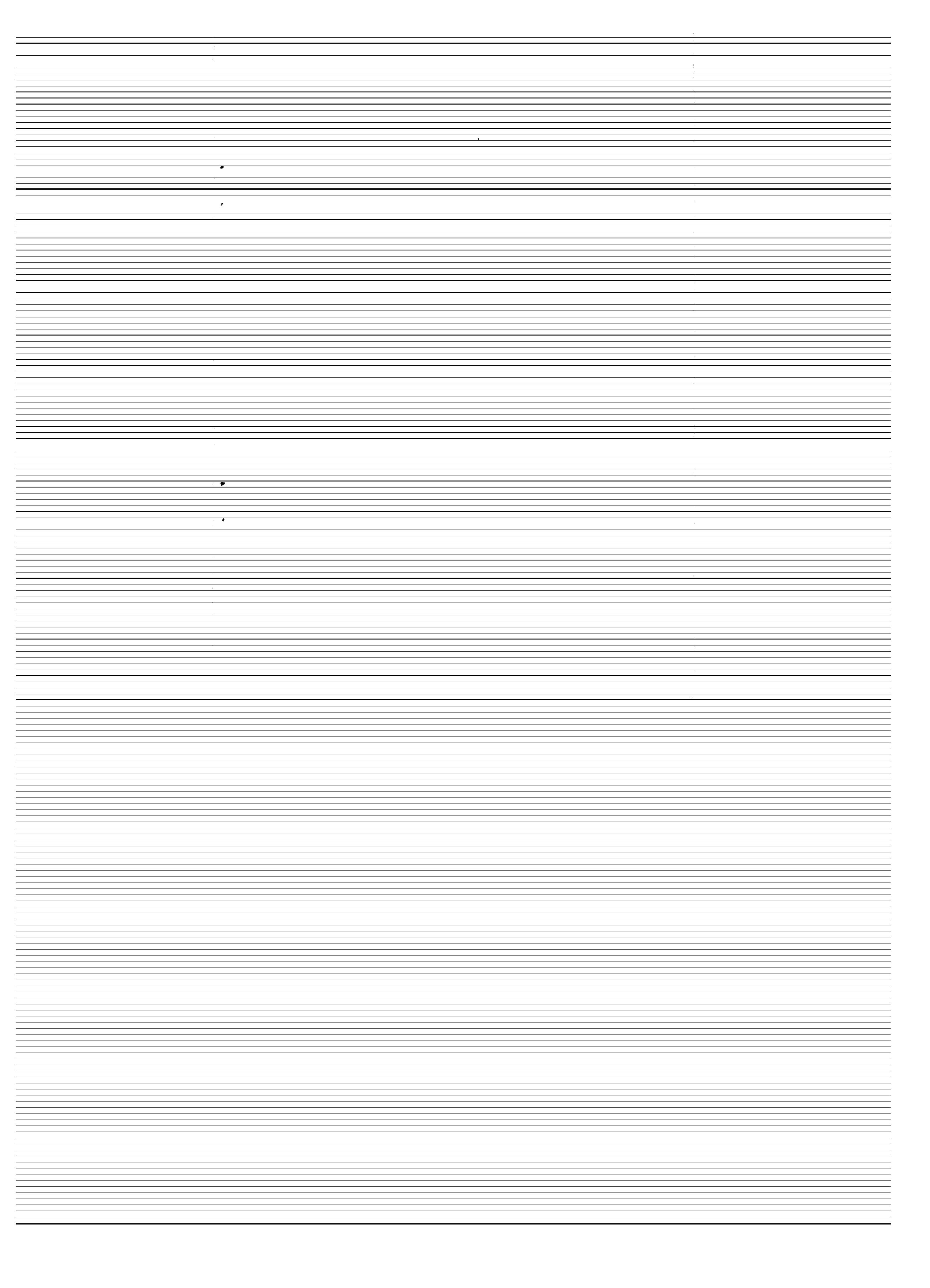
كان الصحابة يقدرون العباس ويحترمونه ، فكان العباس اذا مر بعمر بن الخطاب أو بعثمان بن عفان ، وهما راكبان ، نزلا حتى يجاوزهما اجلالا لعم رسول الله ٠

وعن مهيب مولى العباس ، قال : رأيت عليا يقبل يد العباس ورجله ويقول ، يا عم أرض عنى ٠

وقد توفى العباس بن عبد المطلب بالمدينة المنورة يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من رجب ، وقيل ، بل من رمضان ، سنة اثنتين وثلاثين من الهجرة ٠ وصلى عليه عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، ودفن بالبقيع ٠



فاطمة الزهراء



مولدها ونشـــأتها

فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين ، البضعة النبـــوية ، والجهـــة المصطفوية ، أم أبيها بنت رسول الهدى صلى الله عليه وسلم من السيدة خديجة الطاهرة ، سيدة نساء قريش ٠

كانت خديجة بنت خويلد رضى الله عنها للرسول الأعظم منذ أول ساعات النبوة ٠

لقد نزل عليه الروح الأمين أول ما نزل فى غار حراء ، فلم يكن ما رآه بشرا من الناس ، ولا خلقا مما يتخيله المتخيلون ، فاقرأ ٠ ما شاء الله أن يقرئه من آى الكتاب الكريم ، ثم أخذ يتراءى له فى طريقه بين السماء والارض ، فلا يلتفت يمنة ولا يسرة حتى يراه فيقف لا يتقدم ولا يتأخر كل ذلك ورسول الهدى بين شعاب الجبل ، وفى وحشة الطريق ، فلا أنيس ولا سمير ولا معين ولا نصير ٠

لم يزل الرسول الكريم في موقفه هذا ، حتى انصرف الملك عنـــه ، فانصرف هو الى زوجه خديجة فزعا مرعوبا مما سمع ورأى ، فلما بصرت به ، قالت :

ـ أين كنت يا أبا القاسم ؟ فوالله لقد بعثت رسلى فى طلبــك حتى بلغوا مكة ، ثم رجعوا الى ٠

فحدثها رسول الله حديثه ، فقالت :

ـ أبشر يا ابن عم وأثبت ، فوالذى نفس خديجة فى يده ، انى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة٠

وقامت خديجة ، فجمعت عليها ثيابها ، وانطلقت الى ابن عمها ورقة بن نوفل فأخبرته خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ورقة :

ـ قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتنى يا خديجة ، لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وانه لنبى هذه الأمة ٠ فقولى له : فليثبت ٠ فرجعت خديجة بقول ورقة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ فكانت آية البشر والبشرى له ٠

سارت خديجة أم المؤمنين في تثبيت قلب الرسول ، وترويح نفسه ، وتأييد أمره ، فلم ير شيئا يحزنه ، من رد عليه ، وتكذيب له ، وسخرية به ، ونفور منه، الا فرجت صدره وأذهبت حزنه ، وأثلجت قلبه ، وهونت الأمر عليه ٠

وقد بقي محمد يذكر لها تلك الأيام الى مختتم أيامه ، وظل يتفقدها ويتفقد موطن ذكراها أعواما بعد أعوام ، قالت عائشة رضى الله عنها :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا ذكر خديجة لم يكد يسأم من ثناء عليها واستغفار لها ٠ فذكرها يوما ، فحملتني الغيرة فقلت : لقد عوضك الله من كبيرة السن !

فغضب الرسول غضبا شديدا ، فأسقط في يدى وقلت في نفسى : اللهم ان أذهبت غضب رسولك عنى لم أذكرها بسوء ٠ فلما رأى النبى صلى الله عليه وسلم ما لقيت قال : كيف قلت ! والله لقد آمنت بى اذ كذبنى الناس ، وآوتنى اذ رفضنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمتنه منى ٠

قالت : فغدا وراح على بها شهرا ٠

كانت السيدة خديجة عاقلة جليلة دينة مصونة كريمة ، ومن كرامتها عليه صلى الله عليه وسلم أنه لم يتزوج امرأة قبلها ، وجاءه منها عدة أولاد ، ولم يتزوج عليها قط امرأة ولا تسرى الى أن قضت نحبها ، فوجد لفقدها ، فانها كانت نعم القرين ، وقد أمر الله جل جلاله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يبشرها ببيت في الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب ٠

وقد رزق الرسول من السيدة خديجة بعدد من الأولاد : زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة والقاسم وعبدالله ، ولكن الله لم يشأ لهما أن يعيشا طويلا ، بل ما لبث أن استرد الوديعتين الغاليتين ، أحدهما بعد الآخر ٠

في العام العاشر من زواج الرسول الأعظم والسيدة خديجة الطاهرة ٠٠ استعدا لاستقبال ثمرة جديدة للزوجية السعيدة ٠

وصادف مولدها ، حادثا جليلا في تاريخ الأب ، وتاريخ مكة الدينى أجمع ٠

كانت قريش تفكر منذ سنوات كثيرة فى أن تعيد بناء الكعبة بعد أن تصدعت جدرانها ، وكانت الظروف مهيأة لقريش لتقوم باصلاح الكعبة ، فقد رمى البحر بسفينة رومية جنحت الى جدة ، فسعى اليها رجال من قريش وعادوا بأخشاب السفينة ، وبرجل مسيحى مصرى نجار بناء ٠

بدأت قريش عملية الهدم والبناء ، وكان أول من بدأ الهدم أبو وهب بن عمر بن عائذ بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرا ، فوثب فى يده حتى رجع الى موضعه كما يروى ابن هشام ـ فقال :

ـ يا معشر قريش ، لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم الا طيبا ، لا يدخل فيها مهر بغى ، ولا بيع ربا ، ولا مظلمة أحد من الناس ٠

اقتسمت قريش جوانب الكعبة الأربعة : فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة ٠ وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم ٠ وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم عمـــرو بن هصيص بن لؤى ٠ وكان شق الحجر لبنى عبد الدار بن قصى ولبنى أسد بن العزى ٠ وقد هاب الناس هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة :

ـ أنا أبدؤكم فى هدمها ، فأخذ المعول ، ثم قام عليها وهو يقول :

ـ اللهم لم ترع ، اللهم انا لا نريد الا الخير ٠

ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص الناس تلك الليلة ، وقالوا :

ـ ننظر فان أصيب لم نهدم منها شيئا ورددناها كما كانت ، وان لم يصبه شيء فقد رضى الله صنعنا فهدمنا ٠

فاصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله ، فهدم وهدم الناس معه ، حتى اذا انتهى الهدم بهم الى الأساس أساس ابراهيم عليه السلام أفضوا الى حجارة خضراء كالأسنمة آخذ بعضها بعضا ، فرأوا أن يتخذوا هذه الأحجار أساسا للبناء الجديد ٠

بدأ بناء الكعبة من جديد ، وكان بابها لاصقا بالأرض منذ عهـــد ابراهيم عليه السلام فقال أبو حذيفة بن المغيرة :

ـ يا قـــوم ، ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخلها أحد الا بســـلم ، فانه لايدخلها حينئذ الا من أردتم فان جاء أحد ممن تكرهونه رميتم به فسقط وصار نكالا لمن يراه ٠

جمعت بطون قريش أحجارا من الجرانيت الأزرق من الجبال المحيطة بمكة وبدأت البناء حتى بلغ البناء موضع الركن ، أى الحجر الأسود ، وأصبح ارتفاع البناء حينئذ الى قامة الرجل ، وأرادوا وضع الحجر الأسود فى مكانه فى الجانب الشرقى ، فاختلفت بطون قريش على من يحوز شرف اعادة الحجر الأسود الى مكانه واشتدت حدة الخلاف وكاد القتال ينشب بين بطون قريش . فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى ابن كعب بن لؤى على الموت ، وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا لعقة الدم ، ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ، ثم اجتمعوا فى المسجد . فوقف أبو أمية بن المغيرة ، وكان أسن قريش فقال :

— يامعشر قريش ، اجعلوا بينكم — فيما تختلفون فيه — أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه .

فوافقوا على هذا الرأى ، فكان أول داخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : — هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد . فلما انتهى اليهم أخبروه الخبر ، فقال صلى الله عليه وسلم :
« هلم الى ثوبا » فأتى به ، فأخذ الركن ، فوضعه فيه بيده ، ثم قال :
« لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب » ثم ارفعوه جميعا . ففعلوا حتى اذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه ، وبذلك حلت كلمة الوفاق محل الشقاق ، ورضى الكل بحكمه صلى الله عليه وسلم والى قضية التحكيم يشير قول هبيرة بن وهب المخزومى :

تشاجرت الأحياء فى فصل خطة
جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد

تلاقوا بها بالبغض بعد مودة
وأوقد نارا بينهم شر موقد

فلما رأينا الأمر قد جد جده
ولم يبق شىء غير سل المهند

رضينا وقلنا العدل أول طالع
يجىء من البطحاء من غير موعد

ففاجأنا هذا الأمين محمد
فقلنا رضينا بالأمين محمد

ورجع رسول الهدى ، ليطمئن على سلامة زوجته ، فاذا به يتلقى طفلته الرابعة : فاطمة الزهراء (١)

تفتحت حياة فاطمة على أضواء الرسالة السماوية ، التى راح محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الايمان بها ، وترك عبادة الأوثان ٠

كان رسول الهدى يجادل الناس بالتى هى أحسن ، ويحاول مخلصا رفع العصائب عن عيونهم ليروا نور الاسلام ، ويؤمنوا بالله الواحد ، الفرد الصمد ٠ ولكن الارستقراطية القرشية ناصبته العداء ، ولم تصغ الى كلمة الحق ٠ فقد رأت فى دعوة الاسلام خطرا يهدد مصالحها الذاتية ، ويقضى على امتيازاتها الطبقية ، فتآمرت للقضاء عليه وعلى دعوته ، ولكن الله حفظ رسوله وأتم نوره ٠

عاشت فاطمة فى وسط خضم زاخر من الآلام ، التى تصهر فيها الدعوات ٠٠ كانت هى وحدها - دون أخواتها - التى تقف بجوار أبيها حين يلقى عنت الكافرين ، وايذاء المشركين ٠

كانت بالقرب منه يوم سعى الى الكعبة ، حتى استلم الركن ، فما أن رآه بعض الطغاة حتى أسرعوا اليه وأحاطوا به ، وصرخوا فيه :

- أنت الذى تقول كذا وكذا ؟ وأحصوا ما قال من شتم آبائهم ، وعيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم ٠

فيجيبهم الرسول فى صوت هادىء ثابت قوى :

- نعم ، أنا الذى يقول ذلك ٠

وشاهدت الزهراء ٠ رجلا منهم ، يثب الى أبيها ، ويشده من تلابيبه ، فوقعت مذهولة مذعورة مما يصيب أباها ، أحب النـــاس اليها ، وهى لا تستطيع أن تفعل شيئا أمام هؤلاء الطغاة ٠ ثم شاهدت أبا بكر يقف دون رسول الله باكيا ، ويقول :

- أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟

فالتفتوا اليه ، وشرر الغضب يتطاير من عيونهم ، فجذبوه بلحيته ثم لم يدعوه حتى صدعوا رأسه ٠

---

(١) الزهراء : المشرقة الوجه

وعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم الى بيته ، وفاطمة تتبعه ، وترى الناس أحرارا وعبيدا يلقونه في الطريق ، يكذبونه ويؤذونه !

وكانت فاطمة أيضا بالقرب منه ، يوم كان ساجدا في البيت العتيق ، وحوله قوم من طغاة قريش ، فجاء « عقبة بن أبي معيط » بسلى جزور ، فقذفه على ظهره الشريف ، فلم يرفع الرسول الأعظم رأسه ، حتى تقدمت ابنته فاطمة في شجاعة وثبات ، فأخذت السلى ، ورفعت رأسها تدعو على من صنع ذلك ، ثم رفع رسول الله رأسه وقال :

« اللهم عليك الملأ من قريش ! اللهم عليك أبا جهل بن هشام . وعتبة ابن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط ، وأبي بن خلف » .

ران على القوم صمت عميق حين سمعوا دعاء النبي ، وبعد سنوات كان هؤلاء جميعا صرعى في القليب بجوار ماء بدر .

وكانت الزهراء ، هناك بالقرب من أبيها ، يوم خرج الى قريش . وقد نزل عليه قوله تعالى :

« وأنذر عشيرتك الأقربين » فجعل رسول الله ينادي :

« يا معشر قريش ، اشتروا أنفسكم ، لا أغني عنكم من الله شيئا .

يابني عبد مناف ، لا أغني عنكم من الله شيئا .

يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا .

يا صفية بنت عبد المطلب ، لا أغني عنك من الله شيئا .

ثم نظر رسول الهدى الى ابنته فاطمة ، واستطرد قائلا :

« ويا فاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالي ، لا أغني عنك من الله شيئا » .

وتأثرت الزهراء من نداء أبيها ، وكأني بها قد همست في نفسها مستجيبة ملبية :

« لبيك يا أحب والد وأكرم داع » .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي يضرب الرسول فيها المثل بابنته فاطمة ، تأكيدا لما يريد نشره في المجتمع من الحق والعدل . فقد روى

التاريخ أن امرأة من قريش سرقت بعد أن أسلمت ، وبلغ الرسول أمرها فأشفقت قريش أن يقام عليها الحد ، وتقطع يدها ، فاستشفعوا لها عند الرسول حتى جاءوا أسامة بن زيد ليشفع فيها ، وكان الرسول يشفعه ، فلما فعل ، قال صلى الله عليه وسلم :

— « لا تكلمني يا أسامة ، فان الحدود اذا انتهت الى ، فليس لها مترك ، ولو كانت بنت محمد فاطمة لقطعت يدها » ٠

في بيت النبوة ، ومهبط الوحي ٠ درجت فاطمة الزهراء ، وتفتحت عيونها على الحياة ، وتعلمت في دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها في مكة : آيات من القرآن وعادات يأباها من حولهم العابدون وغير العابدين :

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات في حاضرة الجزيرة العربية فكانت تضمد جراح أبيها في غزوة أحد ، وكانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها عليه أحد من النساء في أكثر أيامها ٠

لقد نشأت الزهراء نشأة جد واعتكاف : نشأة وقار واكتفاء ، وعلمت مع الأيام أنها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه ، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذى لا يدانى ، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها في عزلة بين أبناء آدم وحواء ٠

مضت سنوات من بعثة الرسول الكريم ، شاهدت فاطمة خلالها من ألوان العذاب والاضطهاد ما لم تسمع به العرب من قبل ، حتى اضطر بعض المسلمين الى الهجرة نحو الحبشة ، وصحبت فاطمة أبويها الى شعب أبى طالب ، حيث عاشت هنالك بين أسوار الحصار الدامى سنين عددا ، ثم عادت الى مكة بعد انهيار الحصار ، لتشهد بعينها موت أمها الطاهرة خديجة ، ثم هجرة أبيها الى يثرب وعلى أثره هاجر على بن أبى طالب ٠وكان قد تمهل ثلاثة أيام في مكة ، ريثما أدى عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، الودائع التى كانت عنده للناس ٠

وبقيت فاطمة وأختها أم كلثوم ، حتى جاء رسول من أبيها فصحبهما الى يثرب ٠ ولم تمر رحلتهما بسلام ٠ فانهما ما كادتا تودعان أم القرى ، حتى أخذ اللئام من مشركى مكة يطاردونهما وقد رآهما الحويرث بن نقيذ ابن عبد قصى ، وهو ممن آذى الرسول بمكة ، فألهب راحلته ، ضربا بالسياط حتى لحق بهما وطاردهما ، حتى نخس بعيرهما ، فألقى بهما على

أديم الصحراء ! وكانت فاطمة الزهراء ضعيفة البنية ، نحيلة الجسم ، لم تسترد قوتها بعد من آثار الحصار المنهك ، فما كادت تقوم من وقعتها حتى سارت بقية الطريق الى يثرب ، وما تكاد ساقاها تستطيعان حملها ممـا أصابها من تعب ، وما نالها من نصب .

وقصت الزهراء على الرسول ما صنع الحويرث ، معها ومع أختها . ولم يبق فى المدينة من لم يلعن الحويرث ، وسوف تمضى السنوات والرسول لا ينسى الفعلة الآثمة ، حتى اذا جاء العام الثامن من الهجرة ، وفتـح المسلمون مكة ، أمر الرسول أن يقتل أمراؤه نفرا من المشركين ، ولو وجدوهم تحت أستار الكعبة ، وكان من بين النفر الذين سـماهم الرسـول (الحويرث) .

وكان حظ الحويرث من القتل على يد على بن أبى طالب رضى الله عنه .

زواجهـــا

صارت فاطمة الزهراء زهرة متفتحة فى الثامنة عشرة من عمرها ٠ وجاء أبو بكر الصديق الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فاطمة فأطرق عليه السلام قليلا ثم قال ٠

ـ انتظر بها القضاء ٠

وسمعت فاطمة ولا ريب بخطبة الصديق اياها وفكرت فى الرجل وفيما قال له أبوها فلم تفهم شيئا ، وترقبت ذلك القضاء الذى ينتظره رســول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وجاء عمر بن الخطاب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب فاطمة فقال له عليه السلام :

ـ انتظر بها القضاء ٠

ودار حديث فى الدار بين فاطمة الزهراء وأم كلثوم وأم أيمن حــــول خطبة عمر لفاطمة ورفض الرسول صلى الله عليه وســـلم ذلك الزواج فى كياسة وأدب وذلك القضاء الذى ينتظره رسول الله عليه الصلاة والسلام٠ ولم يؤد الحوار الى حقيقة تطمئن اليها قلوب أهل البيت ٠

وفطن أبو بكر وعمر الى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أدخـر الزهراء لعلى بن أبى طالب ، فجاءا الى على يأمرانه أن يخطبها فنبهاه لأمـــر كان عنه غافلا ، فجاء رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وحيـــاه بتحيـــة الاسلام ٠ ثم جلس على استحياء قريبا من الرسول الكريم ، لا يذكر شيئا مما جاء من أجله ، وأدرك صلى الله عليه وسلم أن هناك حاجة عند ابن عمه يريد أن يفصح عنها ، فسأله الرسول الكريم :

ـ ما حاجة ابن أبى طالب ؟

وبصوت خفيض ، أجاب على :

ـ ذكرت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

فقال الرسول : مرحبا وأهلا ٠

وأمسك صلى الله عليه وسلم لا يزيد ٠ وطال الصمت ، وانصرف عـلى تتنازعه الحيرة والقلق ، اذ أنه كان يريد افصاحا أكثر من رسول الله صلى

الله عليه وسلم ، وزاده قلقا هذا الصمت الذى أعقب كلمتى الرسـول :
« مرحبا وأهلا » ٠

وخرج على ووجد فى انتظاره اخوانه وأصحابه يترقبون عودته فسألوه :
ـ ماذا أجابك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟
ـ ما أدرى والله شيئا ، تحدثت الى رسول الله فى الأمر ، فما زاد على قوله لى : مرحبا وأهلا ٠
ـ يكفيك من رسول الله احداهما ٠

وتركه أصحابه ، وقد عاد اليه الأمل والرجاء بعد أن بشروه ٠ حتى اذا جاء الغد ، توجه الى الرسول مرة ثانية ، ووقف غير بعيـــد منه ، وقال بصوت يسمعه النبى :
ـ أردت أن أخطب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته ، فقلت : والله مالى من شىء ، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها اليه ٠

وتهلل وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبشر وخرج الى ربيبه وابن عمه وقال له :
ـ هل عندك من شىء ؟
ـ كلا ٠
ـ وأين درعك الحطمية (التى تحطم السيوف)
ـ عندى ٠

ودفع على بالدرع الى غلامه ليبيعها فانطلق بها الى السوق ، وبينما هـو يبيعها بأربعمائة درهم اذ رآه عثمان بن عفان فقال :
ـ هذا درع على فارس الاسلام لا يباع أبدا ٠

فدفع لغلام على أربعمائة درهم وأقسم أن لا يخبره بذلك ورد الدرع معه٠

وقال النبى صلى الله عليه وسلم لأنس بن مالك :
ـ انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعـدتهم من الأنصار ٠

فانطلق ودعاهم ، فلما أخذوا مجالسهم التفت عليه السلام الى على بن أبى طالب وقال :
ـ يا على أخطب لنفسك ٠

فقام علي فقال :

ـ الحمد لله شكرا لأنعمه وأياديه ، وأشهد أن لا اله الا الله شهادة تبلغه وترضيه ، وهذا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجني ابنته فاطمة على صداق مبلغه أربعمائة درهم ، فاسمعوا ما يقول واشهدوا .

قالوا : ما تقول يا رسول الله ؟

ـ الحمد لله المحمود بنعمته ، المعبود بقدرته ، المطاع لسلطانه ، المهروب اليه من عذابه ، النافذ أمره فى أرضه وسمائه ، الذى خلق الخلق بقدرته ونيرهم بأحكامه ، وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم .

إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبا لاحقا ، وأمرا مفترضا ، وحكما عادلا ، وخيرا جامعا ، أوشج بها الأرحام ، وألزمها الأنام ، فقال الله عز وجل : « وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا » . وأمر الله يجرى الى قضائه وقضاؤه يجرى الى قدره ولكل أجل كتاب يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب .

ثم أن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من على وأشهدكم أنني زوجت فاطمة من علي على أربعمائة مثقال فضة ان رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة ، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما وجعل نسلها مفاتيح الرحمن ومعادن الحكمة وأمن الأمة . أقول قول هذا واستغفر الله لى ولكم .

وخر علي ساجدا شكرا لله . فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم :

ـ بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب .

ثم أمر لأصحابه بطبق فيه تمر فوضع بين أيديهم فقال :

ـ انتهبوا .

وجهزت الزهراء . وما كان لها جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من أدم (اناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان .

وجاءت ليلة الزفاف فأولم رسول الله صلى الله عليه وسلم عليها بكبش من عند سعد بن معاذ وآصع من ذرة من عند جماعة من الأنصار ، وقال لعلي :

ـ لا تحدث شيئا حتى تلقاني :

فجاءت بها أم أيمن حتى قعدت فى جانب البيت وعلى فى جانب آخر ٠

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لفاطمة :

– ائتنى بماء

فقامت تعثر فى ثوبها من الحياء فأتته بقعب فيه ماء ، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لها :

– تقدمى ٠

فتقدمت يفوح منها عطر طيب فقد أمر الرسول بلالا أن يشترى طيبا بثلث الصداق ، فنضح على رأسها وقال :

– اللهم انى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرحيم ٠

ثم قال :

– ائتونى بماء ٠

فعلم على الذى يريد فقام وملأ القعب فأتاه به ٠ فأخذه وصنع به كما صنع بفاطمة ودعا له بما دعا لها به ثم قال :

– اللهم بارك فيهما وبارك عليهما وبارك لهما فى شملهما ٠

وتلا المعوذتين ثم قال :

– أدخل بأهلك باسم الله والبركة ٠

فلم تملك فاطمة دمعها ، فتمهل الأب برهة ، وحنا عليها مهونا عليها الأمر بانه انما تركها وديعة عند أقوى الناس ايمانا وأكثرهم علما وافضلهم أخلاقا وأعلاهم نفسا ٠

* * *

لم تكن حياة الزهراء فى بيت زوجها مترفة ولا ناعمة ، بل كانت أقرب الى أن توصف بالخشونة والفقر ٠ روى على بن أبى طالب رضى الله عنه ، قال :

« بتنا ليلة بغير عشاء ، فأصبحت فخرجت ، ثم رجعت الى فاطمة عليها السلام ، وهى محزونة ٠ فقلت : مالك ؟ فقالت : لم نتعش البارحة ولم نتغذ اليوم ، وليس عندنا عشاء ، فخرجت فالتمست فأصبت ما اشتريت طعاما ولحما بدرهم ، ثم أتيتها به فخبزت وطبخت ، فلما فرغت من انتاج القدر ٠ قالت : لو أتيت أبى دعوته ٠ فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو مضطجع فى المسجد ويقول « أعوذ بالله من الجوع » فقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله عندنا طعام ، فهلم ،، فتوكأ على حتى دخل والقدر تفور ٠ فقال: « اغرفى لعائشة » فغرفت فى صحفة ، ثم قال : أغرفى لحفصة فغرفت فى

صحفة حتى غرفت لجميع نسائه التسع ، ثم قال : « اغرفي لأبيك وزوجك فغرفت • فقال : « اغرفي فكلي » فغرفت • ثم رفعت القدر وانهـا لتفيض فأكلنا منها ما شاء الله » •

كانت الزهراء تقاسي من الشظف والفاقة ، حتى أن عليا رضي الله عنـه أشفق عليها يوما من أعباء البيت ، فتمنى لو كانت عنده خادمة تحمل شيئا من عبء البيت الثقيل ، فانتهز فرصة مواتية ، اذ كان الرسول صلى اللـه عليه وسلم قد عاد من احدى غزواته الظافرة بغنائم وسـبايا ، وقال لها :
ـ لقد شقوت يا فاطمة حتى أسليت صدري • وقد جاء الله بسبي ، فاذهبي فالتمسي واحدة تخدمك •

ونحت الزهراء الرحى ، في وهن وضعف ، ونهضت وهي تقول :
ـ أفعل ان شاء الله •

وانتظرت بعض ساعة في دارها ، ريثما تسترد قواها الذاهبة ، وقامت فتلفعت بخمارها وخرجت تسعى الى بيت أبيها ، فلما رآها الرسول ، هش وبش لها ، ثم سألها :
ـ ما جاء بك يا بنية ؟
أجابت :
ـ جئت لأسلم عليك •
ومنعها الحياء أن تسأله فيما جاءت من أجله •

عادت فاطمة من حيث أتت لتنبيء زوجها أنها استحيت أن تطلب من أبيها شيئا ، فعاد بها علي ، وصحبها الى الرسول ، وعرض عنها سؤالها ، وهي تستمع مطرقة في حياء •

أجاب رسول الهدى :
ـ لا والله ، لا أعطيكما وأدع أهل الصفة تتلوى بطونهم ، لا أجد ما أنفق عليهم ، ولكن أبيع وأنفق عليهم من الثمن •

وانصرف علي وفاطمة شاكرين • وما يدريان أن شكواهما مست قلب الأب الحنون وشغلته نهاره كله •

وجاء الليل • وكان البرد قارسا ، فرقدا على فراشهما الخشن يحـاولان النوم فلا يجدان اليه سبيلا لفرط ما يشعران به من قسوة البرد ، وبينمـا هما كذلك يحتالان على النوم اذ برسول الله صلى الله عليه وسلم يقبـل

عليهما ، وقد انكمشا فى غطائهما مقرورين ، اذا غطيا رأسيهما بدت أقدامهما، واذا غطيا أقدامهما انكشفت رءوسهما · فهبا للقاء الضيف الكريم ، لكنه صلى الله عليه وسلم ، ابتدرهما قائلا :

ـ مكانكما ·

ثم أضاف فى رفق :

ـ ألا أخبركما بخير مما سألتمانى ؟

ـ بلى يا رسول الله ·

ـ كلمات علمنيهن جبريل ، تسبحان الله فى دبر كل صلاة عشرا ، وتحمدان عشرا ، وتكبران عشرا · واذا أويتما الى فراشكما تسبحان ثلاثا وثلاثين ، وتكبران ثلاثا وثلاثين ·

ثم ودعهما رسول الهدى ، بعد أن مدهما بهذا الغذاء الروحى ، ولقنهما هذه الرياضة النفسية التى تغلب المصاعب ، وتهزم المتاعب ·

وقد سمع على بن أبى طالب ، بعد ثلث قرن ، يذكر القصة لبعض أصحابه، ويقول :

ـ فوالله ما تركتهن منذ علمنيهن ·

فسأله رجل من أصحابه :

ـ ولا ليلة صفين ·

فأجاب على مؤكدا :

ـ ولا ليلة صفين ·

زار الرسول فاطمة يوما وهى تطحن بالرحى ، وعليها كساء من وبر الابل ، فبكى نبى الرحمة اشفاقا بها وقال لها :

ـ تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة ·

كانت رضى الله عنها تشكو حينا بعد حين ، ويعودها الرسول يواسيها فى مرضها ، وذات يوم زارها ، فوجدها مريضة ، فقال لها :

ـ كيف تجدينك يا بنية ؟

فأجابت بصوت واهن :

ـ انى لوجعة · وانه ليزيدنى أنى مالى طعام أكله ·

فاستعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم قال لها مواسيا :

ـ يا بنية ، اما ترضين أنك سيدة نساء العالمين ·

ومضت الأيام ·· والزهراء سعيدة مع الشظف والفاقة · سعيدة بالعطف فى قلوب كبار ما كان حطام الدنيا عندها ليساوى مثقال ذرة من هباء ·

ولم تخل هذه الحياة ، وما خلت حياة انسان قط من ساعات خـلاف وساعات شكاية ، فربما شكت الزهراء وربما شكا على ٠ وكان الأب يتولى صلحهما فى كل خلاف ٠

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم ٠ رئى ذات مساء وهو يسعى الى دار الزهراء ، بادى الهم والضيق ، فأمضى وقتا هناك ثم خرج ووجهه الكريـم يفيض بشرا ، فقال قائل من الصحابة :

ـ يا رسول الله ، دخلت وأنت على حال ، وخـرجت ونحن نرى البشر فى وجهك ٠

فأجاب رسول الهدى :

ـ وما يمنعنى وقد أصلحت بين أحب اثنين الى ٠

وحدث مرة أن ضاقت فاطمة بما تجد من شدة زوجها فقالت له :

ـ والله لأشكونك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

وخرجت ، وعلى فى أثرها ٠ حتى جاءت أباها فشكت اليه ما أنكرت من زوجها ٠ فتلطف الأب الأكبر فى ترضيتها وحملها على الرفق بعلى واحتماله ٠

قال على وهو يصحب زوجته الى بيتهما :

ـ والله لا آتى شيئا تكرهينه أبدا ٠

ولكن حدث فى حياة الزهراء حادث كاد أن يكون ذا بال ٠ ولم يكن على يظن أنه يقدم به على أمر يغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ انما كان يعتقد أنه يستعمل حقا خوله اياه الاسلام ، فى أن يتزوج من النسـاء ما يشاء مثنى وثلاث ورباع ٠

فقد خطب على بن أبى طالب بنت أبى جهل الى عمها الحارث بن هشـام ابن المغيرة ، أو خطبت هى اليه ، وتوجه بنو هشام الى رسول الله ، وتوجه على أيضا الى رسول الله ليقص عليه أمر هذه الخطبة ، ويستشيره الرأى فيها ، فسأله الرسول :

ـ أعن حسبها تسألنى ؟

أجابه على :

ـ لا ، ولكن أتأمرنى بها ؟

فأجابه الرسول :

ـ لا ٠ فاطمة بضعة منى ، ولا أحسب الا أنها تحزن أو تجزع ٠

فما كان من على رضى الله عنه الا أن قال :

ـ لا آتى شيئا تكرهه ٠

وكان خبر الخطبة قد ترامى الى سمع الزهراء ، فذهبت غاضـبة الى الرسول صلى الله عليه وسلم وقالت له :

ـ يزعم قومك ، أنك لا تغضب لبناتك ! وهذا علي ناكح بنت أبي جهل !

كان الموقف يحتاج الى بيان وجلاء ، لم رفض الرسول ، فصعد صلى الله عليه وسلم المنبر وقال حين تشهد :

ـ أما بعد فاني أنكحت أبا العاص بن الربيع ، فحدثني وصدقني · وان فاطمة بضعة مني ، واني اكره ان يسوءها ، والله لا تجتمع بنت رسـول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله عند رجل واحد ·

أراد الرسول أن يبين أنه بتصرفه لا يحرم حـلالا ولا يحـل حـراما فاستطرد :

ـ واني لست أحرم حلالا ، ولا أحل حراما ، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله ·

وأوضح عليه السلام أمر خطبة علي لبنت أبي جهل ، وأن اقدامه على مثل هذا الزواج ليس امرا هينا ، فقال :

ـ ان بني هشام استاذنوني في أن ينكحوا ابنتهم عليـا بن أبي طالب فلا آذن ثم لا آذن · الا أن يريد ابن أبي طـالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم ، فانما هي بضعة مني يريبني ما أرابها ، ويؤذيني ما آذاها ·

سمع علي كرم الله وجهه كلمات رسول الهدى ، فثاب الى الحقيقة التي كانت غائبة عنه · كيف أقدم على أن يروع أمن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم بان يجمع بينها وبين بنت عدو الله في بيت واحد !!

ورجع علي عن الخطبة ، وأخذ طريقه الى البيت بخطوات وئيدة ودخـل على الزهراء فوجدها وحيدة ، تذرف دموع الحزن ، فدنا منها ، وأخـذ يعتذر لها مسترضيا :

ـ هبيني أخطات في حقك يا فاطمة ، فمثلك أهل للعفو والمغفرة ·

فأجابت الزهراء :

ـ غفر الله لك يا ابن العم ·

واغرورقت مقلتا الزهراء بالدموع تأثرا بحب أبيها · وانفعالا بموقفه · ثم قامت للصلاة ·

عاد البيت صافيا كما كان قبل أن يمر بتلك التجربة المريرة · ومضت الحياة تسير بالزوجين الكريمين على ما يرجوان من تعاون ومودة · فاطمـة في الدار تقوم على خدمة زوجها بقدر ما تتحمل وتطيق ، وعلي الى جانبهـا يبذل لها من الحدب والرعاية ما يعينها على مشقة العيش الكادح ·

وقد آثر الله جل جلاله فاطمة الزهراء بما لم يؤثر به شقيقاتها الثـلاث : زينب ورقية ، وأم كلثوم · فكتب لها أن تكون وحدها الوعاء الطاهـر للسلالة الطاهرة والمنبت الطيب لدوحة الاشراف من أهل البيت ·

ابناء فاطمة الزهراء

كان الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن مات بنوه ولم يبـــق منهم الا فاطمة ، يريد أن يرى أبناءها وفلذة كبدها يدبون على الأرض فيملئــون قلبه سعادة وغبطة ·

وكان الله جلت قدرته يعلم بحب الرسول بنبيه وبره بأهـــله وذويه ، فأكرمه جلت قدرته ايما اكرام ، فأنزل هذه الآية الكريمة على النبى صـــلى الله عليه وسلم :

« انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » ·

فدعا الرسول فاطمة وحسنا وحسينا فجللهم بكساء وعلى بن أبى طالب خلف ظهره ، وقال : هؤلاء أهل بيتى ، فاذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، فقالت أم سلمة ، زوجة الرسول : وأنا معهم يا رسول الله ؟

قال : أنت على مكانك ، أنت الى خير ·

وعن أبى الحمراء قال : رابطت المدينة سبعة أشهر على عهد النبى صـــلى الله عليه وسلم ، قال رأيت النبى صلى الله عليه وسلم اذا طلع الفجر جـاء الى باب على وفاطمة فقال : «الصلاة الصلاة» · « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » ·

وقال تعالى : « قل لا أسألكم عليه أجرا الا المودة فى القربى » ·

قال ابن عباس : لم يكن بطن من بطون قريش الا وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبينهم قرابة فلما كذبوه وأبوا أن يبايعوه ، قال : « يا قوم اذا أبيتم أن تبايعونى فاحفظوا قرابتى فيكم ، لا يكن غيركم من العرب أولى بحفظى ونصرتى منكم ·

أحب الرسول أبناء فاطمة الزهراء ، وكان حبه لهم مضرب الأمثال فى بر الآباء بالأبناء وتواضع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم · فقد روى عن أسامة بن زيد أنه قال : طرقت باب النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليـلة فى بعض الحاجة ، فخرج الى وهو مشتمل على شىء لا أدرى ما هو · فلمـا فرغت من حاجتى قلت : ما هذا الذى أنت مشتمل عليه ؟ فكشـــف فاذا الحسن على وركه فقال : هذا ابنى وابن ابنتى ، اللهم انى أحبـــه فأحببه وأحبب من يحبهما ·

وروى عن ابن عباس قال : كان الرسول حاملا الحسن على عاتقه فقال رجل :

ــ نعم المركب ركبت يا غلام ٠

فقال النبى : ونعم الراكب ٠

وحدث أن الرسول كان بالمسجد يخطب المسلمين ، فاذا الحسن فى قميص أحمر يمشي ويعثر فقطع الرسول الخطبة ونزل من المنبر وحمله ووضعه بين يديه ثم قال :

ــ صدق الله انما أموالكم وأولادكم فتنة ٠ نظرت الى هــذا الصبى يمشى ويعثر ، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعته ٠

روى الزبير بن العوام أن الحسن جاء الى الرسول وهو ســاجد فركب رقبته ، فلم ينزله حتى كان هو الذى نزل ٠ كما قال : لقد رأيته يجىء وهو راكع ، فيفرج له بين رجليه حتى يخرج من الجانب الآخر ٠

حدث حاتم بن اسماعيل عن معاوية بن أبى مزرد عن أبيه عن أبى هريرة قال : سمعت أذناى هاتان ، وأبصرت عيناى هاتان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بكف الحسن وقدماه على قدم الرسول وهو يقول : حزقة حزقة ٠ ترق عين بقة ، فيرقى الغلام حتى يضع قدميه على صدر الرسول ، ثم يقول له : افتح ، ثم يقبله ٠

ويقول : اللهم أحبه فانى أحبه ٠

ومن آيات حب الرسول للحسن ما روى من أن عليا وفاطمة دخــلا على الرسول ومعهما الحسن والحسين ، فوضعهما فى حجره ، فقبلهما واعتنق عليا باحدى يديه وفاطمة بالأخرى ، فجعل عليهما خميصة سوداء ، وقال :

ــ اللهم اليك لا الى النار ٠

أحب الرسول الحسين كما أحب الحسن سواء بسواء ، فقد روى عنــه صلى الله عليه وسلم أنه قال : حسين منى وأنا من حسين ، أحب الله من أحب حسينا ، وحسين سبط من الأسباط » ٠

كما روى عنه أنه قال : « الحسن والحسين ريحانتاى من الدنيا » ٠

وقد ضرب صلى الله عليه وسلم أكرم الأمثال فى رحمة الأبوة وبرهــا وحدبها ، ومن دلائل بره عليه أفضل الصلاة والسلام ببنيه ، أن الحسن والحسين كانا يصطرعان بين يديه وهو يقول : هى حسن ٠ فقالت فاطمة : لم تقول هى حسن ؟ قال : ان جبريل يقول : هى حسين ٠

ذهب الى أبناء فاطمة الزهراء كل ما فى فؤاد الرسول عليه السلام من محبة البنين ، وهو مشوق الفؤاد الى الذرية من نسله ، فكان عليه السلام لا يطيق آذاهم ، ولا يحب أن يستمع الى بكاء أحد منهم فى طفولتهم ، على كثرة ما يبكى الأطفال الصغار ، خرج من بيت عائشة رضى الله عنها فمر على بيت الزهراء فسمع حسينا يبكى فقال : ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى ؟

وكان يقول لها : ادعى الى ابنى . فيشمهما ويضمهما اليه ، ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين .

كتب المصطفى عليه السلام الى أبى الحارث أسقف نجران ، وما أن فض الأسقف الكتاب ، حتى قال لغلامه :

ــ ادع لى الساعة شرحبيل .

وكان شرحبيل هذا خازن أسراره ، وموضع مشورته ، وذهب الغلام ، وعاد معه شرحبيل ، فقال له :

ــ جاءنى اليوم كتاب من محمد بن عبدالله ، يدعونى فيه لدين يسمى الاسلام ، ثم يخيرنى ان أبيت بين الجزية أو الحرب .

فقال شرحبيل :

ــ لست فى هذا يا مولاى بصاحب رأى على أننى قد علمت ما وعد الله به من النبوة فى ذرية اسماعيل ، فما تؤمن أن يكون هذا هو ذاك . ولكننى قلت ليس لى فى النبوة رأى .

واستشار أبو الحارث ثانيا وثالثا ، فما زادوا عن رأى صاحبهم شيئا ، فأمر أن تدق النواقيس ، وأن توقد النيران ، وجمع الناس ، وعرض عليهم أمر كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانتهوا الى أن يذهب وفد يحاجون الرسول ويجادلونه ، ثم يرجعوا بما يرون ، ومشى وفد نجران الى المدينة ، يرأسهم شرحبيل زعيمهم وصاحب كلمتهم ، فما أن رأى رسول الهدى حتى قال له .

ــ يا محمد ، لقد علمت أنا نصارى ، ويسرنا ان كنت نبيا ان نسمع ما تقول فى عيسى .

فقال صلى الله عليه وسلم :

ــ ما عندى فيه شىء يومى هذا ، فأقيموا حتى أخبركم بما يقول الله فى عيسى .

ولما أصبح الغد ، نزل عليه قول الله عز وجل :

« ان مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون ٠ **الحق** من ربك فلا تكن من الممترين ٠ فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من **العلم** ٠ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين » ٠

نزلت هذه الآية الكريمة ، فخرج المصطفى عليه السلام ، ومعه أحب الناس اليه : على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وفاطمة الزهراء والحسن والحسين ودعا وفد نجران ، وردد عليهم ما نزل فى أمر عيسى عليه السلام٠ ثم دعاهم الى المباهلة ان أبوا الاستجابة لدعوته ونظر شرحبيل الى آل البيت النبوى ، فوجدهم يفيضون بالنور والتقوى والصلاح سيماهم فى وجوههم ، فهابهم القوم ٠ وخافوا أن يباهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال شرحبيل :

ـ دعونا نشتور فيما بيننا ، ثم نفضى اليك بما ينتهى اليه رأينا ٠

ورجع شرحبيل وقال لأصحابه :

ـ يا معشر النصارى ، لا تباهلوا محمدا ، فتهلكوا ٠ فاننى أرى معه وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله ٠

ورفض القوم أن يباهلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجع اليه شرحبيل وقال له :

ـ لن نباهلك ، بل نصطلح على ما تريد ٠

فعرض صلى الله عليه وسلم عليهم الاسلام فامتنعوا ، فعرض عليهم الحرب فقالوا :

ـ مالنا طاقة ٠ فعرض عليهم الجزية ٠ فقالوا : لك ما تريد ٠

ورجع الوفد الى نجران ، والمصطفى صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه :

ـ والذى بعثنى بالحق لو تباهلوا لأمطر الوادى عليهم نارا ٠

كانت الزهراء وأبناؤها وأهل بيت الرسول ، يفيضون بالنور والايمان ، فهم مصابيح الهدى ، شجرة النبوة ، ومهبط الرسالة ، ومنبع الرحمة ، ومعدن العلم ، يهابهم أعداؤهم ، ويحبهم أنصارهم ، وأحباؤهم ٠ ان هيبة بيت النبوة تعلو وجوههم ، فخشيها وفد نجران ، فأبوا المباهلة والملاعنة ، وفضلوا أن يؤدوا الجزية عن يد وهم صاغرون ٠

ريحانة الرسول

الحسن بن علي ، ريحانة الرسول ، ولد في النصف من شهر رمضان بالمدينة المنورة ، سنة ثلاث من الهجرة ·

قالت أم الفضل : يا رسول الله رأيت كأن عضوا من أعضائك في بيتي ·

قال : رأيت خيرا ، تلد فاطمة غلاما فترضعيه بلبن قثم · فولدت الحسن فأرضعته بلبن قثم (ابنها)

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

« لما ولد الحسن جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أروني ابني ما سميتموه ؟ قلت سميته « حربا » قال : بل هو « حسن » فلما ولد الحسين سميناه حربا ، قال بل هو « حسين » فلما ولد الثالث ، جاء النبي صلى الله عليه وسلم فقال : أروني ابني ما سميتموه ؟ قلت : سميته حربا ، قال : هو محسن ·

قال أبو أحمد العسكري : سماه النبي صلى الله عليه وسلم الحسن وكناه « أبا محمد » ولم يكن يعرف هذا الاسم في الجاهلية ·

وبلغ من فرح الرسول بمولد هذا الطفل الميمون أن أمر بحلق رأسه ، وأن يتصدق بزنة شعره فضه ، كما أمر بنحر كبشين وزعت لحومهما على الفقراء ·

ولد الحسن في هذه البيئة الطاهرة العامرة بالتقوى والايمان ، وفي هذا البيت المتواضع الذي أسس على الفضيلة وخشية الله تعالى ، فكأن عينيه قد تفتحا على أكرم المشاهد وأعزها عند المسلمين عامة ·

وما كاد الحسن يشب عن الطوق حتى أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يعلمه مما علمه الله ، وينشئه على خير ما تنشأ الأولاد · روى عن الحسن أنه قال : « علمني رسول الله صلى الله عليه وسلم كلمات أقولهن في الوتر : اللهم أهدني فيمن هديت ، وعافني فيمن عافيت · وتولني فيمن توليت ، وبارك لي فيما أعطيت ، وقني شر ما قضيت ، فانك تقضى ولا يقضى عليك ، وانه لا يذل من واليت ، تباركت ربنا وتعاليت » ·

وقد أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم يبث في قلب الحسن الغض حب الحق والعدل والايثار ، وينفخ في روح الصبي القناعة والرضى · فقد روى عن الحسن أنه قال : أذكر من رسول الله أني أخذت تمرة من تمر الصدقة

فتركتها في فمي فنزعها بلعابها ، وجعلها في تمر الصدقة • فقيل : يارسول الله ، ما كان عليك من هذه التمرة ؟

قال : انا آل محمد لا تحل لنا الصدقة •

وكان يقول : دع ما يريبك الى مالا يريبك • فان الكذب ريبة والصدق طمأنينة •

اختار الرسول صلى الله عليه وسلم الرفيق الأعلى والحسن لم يجاوز الثامنة من عمره ، ولكنه رغم هذه السن الغضة ، وعى الشيء الكثير وتأدب بآداب الرسول الكريم وتخلق بأخلاقه •

ثم بويع أبو بكر الصديق بالخلافة وكان الحسن ما زال في ميعة الصبا ، ولم يذكر التاريخ شيئا عن حياته في عهد أبي بكر ولا في عهد عمر بن الخطاب ، وان كنا نعتقد أنه كان ينشأ كما ينشأ فتية الصحابة وأبناؤهم : يحفظ القرآن ، ويروى الحديث ويتأدب بآداب السنة الشريفة •

فلما آلت الخلافة الى عثمان بن عفان • كان الحسن قد بلغ العشرين ، اكتملت رجولته ، وبلغ في الأدب وسمو الخلق الغاية ، وأشرف في العلم على النهاية ، فلما هم عثمان بفتح طبرستان أعد لذلك جيشا بقيادة سعيد ابن العاص ، فانخرط الحسن في سلكه ومعه من جلة الصحابة رضوان الله عليهم : عبد الله بن العباس ، وعمرو بن العاص ، والزبير بن العوام ، لأنه أحب أن ينال ثواب الغزو في سبيل الله وأجر السعي لاعلاء كلمة الحق • وقد اضطر ملك جرجان الى طلب الصلح من سعيد بن العاص ، وعاد الجيش ظافرا ، وآب الحسن الى المدينة يحيا حياته الأولى ، من اقبال على القرآن والحديث والتفقه فيهما •

ثم امتحن المسلمون بفتنة عثمان وحوصر في داره بالمدينة ، فبعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه بالحسن الى دار عثمان ليحميه ويشترك مع شباب قريش في الدفاع عنه • ولكن عثمان قتل واجتاحت الفتنة العالم الاسلامي ، وبويع علي بالخلافة وانتقل الى الكوفة • ولا شك أن الحسن والحسين قد رحلا الى هذه المدينة ليكونا بجوار أبيهما •

لم تصرف الخلافة وأبهتها عليا بن أبي طالب عن أخذ الناس بالسوية ، لا فرق في ذلك بين قريب أو بعيد • فقد كان لا يعطي ولديه الحسن والحسين أكثر من حقهما ، فكانا يعيشان في الكوفة عيشة الزاهد المتقشف بعدا عن الدنيا ، وايثارا للآخرة وثوابها •

يقول ابن عبد البر فى « الاستيعاب » :

« كان على اذا ورد عليه مال لم يبق منه شيئا الا قسمه ، ولا يترك فى بيت المال منه الا ما يعجز عن قسمته فى يومه ذلك • ولم يكن يستأثر من الفىء بشىء ولا يخص به حميما ولا قريبا ولا يخص بالولايات الا أهل الديانات والأمانات »

فلما قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة ٤٠ للهجرة بايعه أهل العراق ، وبقى نحو سبعة أشهر خليفة للعراق وما يليه من خراسان والحجاز واليمن وغيرها • لم تثبت خلافة الحسن أمام قوة معاوية بن أبى سفيان • فآثر أن يتنازل عن الخلافة حقنا لدماء المسلمين • وكان يقول : ما أحببت أن ألى أمر أمة محمد على ان يهراق فى ذلك محجمة دم •

روى عن الحسن أنه قال لعبد الله بن جعفر رضى الله عنهما :

ـ انى رأيت رأيا أحب أن تتابعنى عليه •

ـ ما هو ؟

ـ رأيت أن أعمد الى المدينة فأنزلها وأخلى الأمر لمعاوية ، فقد طالت الفتنة ، وسفكت الدماء ، وقطعت السبل •

ـ جزاك الله خيرا عن أمة محمد •

وقد خطب الحسن فى وفود أهل العراق فقال :

« انكم بايعتمونى على أن تسالموا من سالمنى وتحاربوا من حاربنى • وانى قد بايعت معاوية فاسمعوا وأطيعوا !! » •

أصبح معاوية صاحب السلطان المطلق فى العالم الاسلامى كله ، وقد أثر عن الحسن أنه قال يوم دخل معاوية الكوفة فى شهر ربيع الثانى سنة ٤١ هـ :

« ألا ان أكيس الكيس التقى وان أعجز العجز الفجور • وان هذا الأمر الذى اختلفت أنا ومعاوية فيه ، اما أن يكون أحق به منى واما أن يكون حقى تركته لله عز وجل لاصلاح أمة محمد وحقن دمائكم » • ثم التفت الى معاوية وقال :

ـ « وان أدرى لعله فتنة لكم ومتاع الى حين » •

* * *

كان الحسن ورعا ، ذا سكينة ووقار وحشمة ، يكره الفتن واراقة الدماء ، ما سمعت منه كلمة فحش قط •

دعاه ورعه وفضله الى ترك الملك والدنيا رغبة فيما عند الله تعالى . وكان لا يحج الا ماشيا ، وكان يقول :

ـ انى لأستحى من ربى أن ألقاه ولم أمش الى بيته ·

وكان جوادا تقيا يصوم النهار ويقوم الليل ·

وقد وصفه محمد بن الحنفية وصفا دقيقا فقال :

ـ « أنت عقبة الهدى ، وخلف أهل التقوى ، وخامس أصحاب الكساء ، غذتك بالتقوى أكف الحق ، وأرضعتك ثدى الايمان ، وربيت فى حجر الاسلام » ·

ورث الحسن والحسين عن جدهما وأبيهما فصاحة اللسان ، وقوة الجنان وحضور البديهة والحلم والكرم ·

سأله رجل صدقة ولم يكن عنده ما يسد به رمقه فاستحى أن يرده فقال : ألا أدلك على شىء يحصل لك منه بر ؟ قال : بلى ، فما هو ؟ قال : اذهب الى الخليفة فان ابنته توفيت وانقطع عليها وما سمع من أحد تعزية · فعزه بقولك له : « الحمد لله الذى سترها بجلوسك على قبرها ولا هتكها بجلوسها على قبرك » ، فذهب الرجل وفعل ما قال له : فذهب عن الخليفة حزنه وأمر له بجائزة وقال له : أكلامك هذا ؟ قال : لا · بل كلام فلان ·

قال : صدقت فانه معدن الكلام الفصيح ، وأمر له بجائزة أخرى ·

ان من يلوذ بأهل البيت ، لا يرد خائبا بل ينال ما يريد وفوق ما يريد ، فانهم منبع الكرم والجود والاحسان · قد كان فى استطاعة الحسن أن يعتذر لمن سأله بأنه ليس لديه شىء يعطيه ويكون عذره وقتئذ مقبولا ، ولكنه التمس له طريقة يفرج بها كرب السائل فأشار عليه بما تقدم فنال الخير الكثير ·

خرج الحسن والحسين وعبد الله بن جعفر ، رضى الله عنهم حجاجا · فلما كانوا ببعض الطريق جاعوا وعطشوا وقد فاتتهم أثقالهم ، فنظروا الى خباء فقصدوه فاذا فيه عجوز ، فقالوا : هل من شراب ؟ فقالت نعم · فأناخوا بها وليس عندها الا شويهة · فقالت : احلبوها واشربوا لبنها ، ففعلوا ذلك · فقالوا لها : هل من طعام ؟ قالت : هذه الشويهة ما عندى غيرها ، فأنا أقسم عليكم بالله الا ما ذبحها أحدكم حتى أهيىء لكم الحطب فاشووها وكلوا · ففعلوا ذلك · وأقاموا عندها حتى أبردوا · فلما ارتحلوا من عندها ، قالوا لها : يا هذه ، نحن نفر من قريش نريد هذا الوجه فاذا رجعنا سالمين ، فألمى بنا فانا صانعون بك خيرا ان شاء الله تعالى · ثم ارتحلوا · وأقبل زوجها فأخبرته الخبر فغضب وقال : ويحك أتذبحين شاتنا لقوم لا نعرفهم ثم تقولين نفر من قريش !

ثم بعد دهر طويل أصابت المـــرأة وزوجها السنة فاضطرتهم الحـاجة الى دخول المدينة فدخلا يلتقطان البعر فمرت العجوز فى بعض سكك المدينة ومعهــا مكتلها تلتقط فيه البعر ، والحسن رضى الله عنه جالس على باب داره ، فنظر اليهـا فعرفها فناداها وقال لهـا : يا أمة الله • هل تعرفيننى ؟ فقالت : لا • فقال : أنا أحد ضـيوفك يوم كذا ، سـنة كـذا فى المنزل الفـلانى •

فقالت : بأبى أنت وأمى ، لست أعرفك !

قال : فان لم تعرفيننى ، فأنا أعرفك • فأمر غلامه فاشترى لهـا من غنم الصدقة ألف شاة وأعطاها ألف دينار وبعث بهـا مع غلامه الى أخيه الحسين رضى الله عنه • فلمـا دخل بها الغلام على أخيه الحسين عرفها • وقال : بكم وصلها أخى الحسن ؟ فأخبره فأمر لها بمثل ذلك • ثم بعث بهـا مع الغلام الى عبدالله بن جعفر رضى الله عنهما • فقال : والله لو بدأت بى لأتعبتهما وأمر لها بألفى شاة وألفى دينار • فرجعت وهى أغنى الناس •

كان الحسن رضى الله عنـه حاد الذكاء حاضر البديهة ، قوى الحجة ، معدن الفهم ، وينبوع العلم ، اغتسل رضى الله عنه وخرج من داره فى بعض الأيام وعليه حلة فاخرة ووفرة ظاهرة ومحاسن سافرة فعرض له فى طريقه شخص من فقراء اليهود وعليه مسح من جلود ، قد أنهكته العـلة ، وركبته القلة والذلة ، وشمس الظهيرة قد شوت شواه وهو حامل جرة ماء على قفـاه •

فاستوقف الحسن رضى الله عنه ، وقال :

ـ يا ابن رسول الله ، سؤال ؟

قال : ما هو ؟

قال : جدك يقول : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » • وأنت مؤمن وأنا كافر • فما أرى الدنيا الا جنة لك تنعم بهـا ، وما أراها الا سـجنا على قد أهلكنى ضيرها وأجهدنى فقرها •

قال الحسن : يا هذا ، لو نظرت الى ما أعد الله لى فى الآخرة لعلمت أنى فى هذه الحـالة بالنسبة الى تلك سجن • ولو نظرت الى ما أعد الله لك فى الآخرة من العذاب الأليم لرأيت أنك الآن فى جنة واسعة » •

عرف اليهود منذ زمن الرسول صـلى الله عليه وسـلم بالدس وصنع الأكاذيب والترهات وتشكيك المسلمين فى عقائدهم وقد حاربهم الرسول فى المدينة وأجلاهم عنها لخيانتهم ونقضهم العهود والمواثيق • وقد أسلم بعضهم عن عقيدة صحيحة لكن بقى أكثرهم حانقا على المسلمين • وكان رأس المنافقين عبـد الله بن أبى سـلول الذى راح يبث الفتنـة ، ويدبر

المؤامرات ضد الرسول والذين آمنوا معه ، وعبد الله بن سبأ الذى صار يتنقل فى البلدان وينشر الدعاية ضد عثمان بن عفان رضى الله عنه ويحض على الثورة ·

وفى هذه القصة التى ذكرناها نجد أن هذا اليهودى يعترض على الحسن لما رآه يرتدى ملابس فاخرة ويذكر له حديث الرسول صلى الله عليه وسلم « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » · فكيف يتنعم الحسن فى الدنيا وهو مؤمن ويشقى اليهودى وهو كافر ؟ ولماذا لا يكون حالهما بالعكس اذا كان حديث رسول الله صادقا ؟ سؤال يريد به احراج الحسن من جهة وتشكيكه فى حديث الرسول من جهة أخرى · لكن الحسن رضى الله عنه كان حاضر البديهة · فأجاب بجواب مقنع مفحم حيث أوضح له أن حالته التى يشكو منها انما هى كالجنة بالنسبة الى عذاب الآخرة الذى أعد للكافرين وان حالة الحسن التى ظنها نعيما انما هى كالسجن بالنسبة الى نعيم الجنة الذى عد للمتقين ·

توفى الحسن سنة تسع وأربعين ، وقيل سنة خمسين ، وقيل انه مات مسموما · دخل الحسين على الحسن رضى الله عنهما فى مرضه فقال :

– يا أخى انى سقيت السم ثلاث مرات · فلم أسق مثل هذه المرة ، انى لفظت كبدى ·

قال الحسين : من سقاك يا أخى ؟

– ما سؤالك عن هذا ؟ تريد أن تقاتلهم ، كلهم الى الله ·

وقد اختلف المؤرخون فى سبب موت الحسن ، فزعم قوم أنه زج ظهر قدمه فى الطواف بزج مسموم ، وقال آخرون · ان معاوية دس الى جعدة بنت الأشعث بن قيس أن تسم الحسن ويزوجها يزيد ، فسمته وقتلته · فقال لها معاوية : ان يزيد منا بمكان ، وقد يصلح له من لا يصلح لابن رسول الله ! وعوضها عنه مائة ألف درهم ·

ولما حضرت الحسن الوفاة قال لأخيه الحسين :

– قد كنت طلبت الى عائشة اذا مت أن تأذن لى فأدفن فى بيتها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم · فاطلب ذلك اليها · فان طابت نفسها فادفنى فى بيتها · وما أظن الا القوم سيمنعونك اذا أردت ذلك · فان فعلوا فلا تراجعهم فى ذلك وأدفنى فى بقيع الغرقد ·

فلما مات الحسن أتى الحسين عائشة رضى الله عنها فطلب ذلك اليها فقالت : نعم وكرامة فبلغ ذلك مروان فقال : والله لا يدفن هناك أبدا ، منعوا عثمان من دفنه فى المقبرة ويريدون دفن الحسن فى بيت عائشة ، فبلغ ذلك الحسين فدخل هو ومن معه فى السلاح وتسلح بنو أمية أيضا ، وكادت الفتنة أن تقع بين بنى هاشم وبنى أمية ، لولا كلمة من عبد الله بن جعفر لابن عمه الحسين ، قال :

ـ عزمت عليك بحقى ألا تكلم بكلمة ٠

ومضى بابن عمه الحسن الى البقيع حيث ثوت أمه السيدة فاطمة الزهراء ٠

حدث ثعلبة بن أبى مالك قال :

ـ شهدت الحسن يوم مات ودفن فى البقيع ، فلقد رأيت البقيع ، ولو طرحت فيه ابرة ما وقعت الا على رأس انسان ٠

عاش الحسن بن على زاهدا ، ومات زاهدا ، طيب الله ثراه وجعل الجنة مثواه ٠

سبط الرسـول

الحسين بن علي بن أبي طالب ، يكنى أبا عبد الله سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وريحانته ولد بالمدينة المنورة ، لخمس خلون من شـهر شعبان سنة أربع من الهجرة . وقد أمر الرسول بأن يتصدق بزنة شعره فضة ، كما أمر بنحر كبشين وزعت لحومهما على الفقراء .

ولقب بألقاب أشهرها : الزكي . الرشيد . الطيب . الوفي . السيد . المبارك . والتابع لمرضاة الله والسبط .

وكانت أمه فاطمة الزهراء ترقصه وتقول :

ان بني شبه النبي   ليس شبيها بعلي

وكان الحسن رضى الله عنـه أشبـه برسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم ما بين الصـدر الى الرأس ، والحسـين أشـبـه به صـلى الله وعليه وسلم من الصـدر الى ما أسـفل منه . وكان ربعـة ليس بالطويل ولا بالقصير ، واسـع الجبين ، كث اللحيـة ، واسـع الصدر ، عظيم المنكبين ، ضخم العظام ، رحب الكفين ، والقدمين ، رجـل الشعر ، متماسك البدن ، أبيض مشربا بحمرة ، حسن الصوت .

شب الحسـين في بيئة زكية كما شب أخوه الحسن ، كانا صنوين في الخير والفضل ووفرة الايمان ، وقد رضعا من لبان التقى وربيا في كنف الهداية والايمان .

نشأ الحسين كما نشأ الحسن في حجر النبوة الطاهرة ، تتفتح أكمامه على نور الهداية ، وتكتحل عيناه بمشهد أكرم الخلق ، يلتقط منه ما يسمع من حديث أفوح من المسك ، وأندى من الندى ، غذته الزهراء ونشأه على ورعاه المصطفى عليه السلام . فما كاد ينطق حتى أخذ يتعلم الأدب ، وحفظ القرآن والصلاة والصوم . يحضر مجالس الصحابة ويدب في مهابط الوحي ، ترمقه العيون ، وتتبعه الأحداق في اعجاب وحب واعزاز .

قبض الرسول صلى الله عليه وسلم والحسين لم يزل صبيا لم يشب عن الطوق .. وبويع أبو بكر الصديق وهو لم يزل غض الاهاب ، ثم ماتت أمه فاطمة الزهراء ، فذاق مرارة اليتم ، ولكن بر أبيه وحدبه عليه ورعايته اياه قد أنساه ما يعانيه من حزن عميق .

ولما ولى عمر بن الخطاب أمر الخلافة لم يكن الحسين قد بلغ الحلم بعد ، فلما بويع عثمان بن عفان كان قد جاوز العشرين من العمر ، فأضحى فتى في حكمة الشيوخ يافعا فى زهد النساك وتعبدهم ، عالما فى وقار العلماء ، أخذ من العلم بقسط وافر واغترف مناهل الفضائل ومكارم الأخلاق . فلما دعا الداعى الى الجهاد فى سبيل الله ، لم يتردد ، بل كان فى طليعة الذين سارعوا خفافا غير ثقال للاشتراك فى الجيش الذى سار لفتح طبرستان بقيادة سعيد بن العاص .

ولم يركن الحسين الى الدعة والترف ولم يأخذ نفسه بما يأخذ به الشبان أنفسهم من لهو أو ايثار عافية ، بل سارع الى القتال غير هياب ولا وجل .

وعندما حاصر الثوار عثمان بن عفان فى داره بالمدينة ، هب على بن أبى طالب يدافع عنه ، فأرسل ابنيه الحسن والحسين يذودان عنه العدوان ، ولكنهما لم يستطيعا لارادة الله تعالى دفعا فقد اغتيل عثمان بن عفان رضى الله عنه . وبويع على بن أبى طالب كرم الله وجهه وانتقل الى الكوفة فانتقل معه ولداه الحسن والحسين . وقد شهد الحسين مع أبيه موقعة الجمل ، وحارب معه يوم صفين ، وأسهم فى قتال الخوارج .

ولما قتل على بن أبى طالب رضى الله عنه وأخذت البيعة للحسن ، كان الحسين فى طليعة من بايعه وأيده وشد أزره ونصره : فلما نزل الحسن لمعاوية عن الخلافة وآثر العافية لم يوافقه الحسين وأشار عليه بالقتال ، فغضب الحسن وقال له : والله لقد هممت أن أسجنك فى بيت وأطين عليك بابه ، حتى أقضى بشأنى هذا وأفرغ منه ثم أخرجك . فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت ، وهذا مثل كريم يضربه الحسين فى آداب الأسرة .

لما توفى معاوية سنة ٦٠ هـ كان على المدينة الوليد بن عتبة بن أبى سفيان فكتب يزيد بن معاوية الى الوليد « من يزيد أمير المؤمنين الى الوليد بن عتبة » أما بعد ، فان معاوية كان عبدا من عباد الله أكرمه الله واستخلفه وخوله ومكن له فعاش بقدر ومات بأجل ، فرحمه الله فقد عاش محمودا ومات برا تقيا والسلام ..

ثم أضاف : أما بعد فخذ حسينا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير بالبيعة أخذا شديدا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام » .

فلما قرأ الوليد للحسين الكتاب ونعى اليه معاوية ، قال الحسين : انا

لله وانا اليه راجعون ورحم الله معاوية ، أما البيعة فان مثلى لا يعطى بيعته سرا ولا أراك تقنع بها منى سرا ٠

قال : أجل ٠

فقال الحسين : فاذا خرجت الى الناس فدعوتهم الى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدا ٠٠

وكان الحسين رضى الله عنه قد عول على ترك المدينة الى مكة ، كما تركها قبله بليلتين عبد الله بن الزبير ، دون مبايعة يزيد ، فخرج منها ومعه جل أهل بيته واخوته وبنو أخيه ٠ فلما بلغ أهل الكوفة وفاة معاوية وعلموا امتناع الحسين عن بيعة يزيد ونزوله مكة اجتمعت الشيعة وكتبوا اليه كتبا جاء فيها :

« انه ليس علينا امام فاقبل لعل الله أن يجمعنا بك على الحق ٠ ثم سرحوا عدة رسل بالكتب اليه ، وتلاقت الرسل كلها عند الحسين فكان يقرأ الكتب ويسأل الرسل عن الناس ٠ ولبث فى مكة على هذه الحال أربعة أشهر ٠ ثم دعا ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب وأمره بالمسيرة الى الكوفة فان رأى الناس مجتمعين مستوثقين عجل اليه بذلك ٠

خرج مسلم حتى أتى المدينة ، فأخذ منهـــا دليلين ، فمرا فى البرية ، فأصابهم عطش ، فمات أحد الدليلين ، فقدم الكوفة ، ونزل على رجل يقال له « عوسجة » فلما علم أهل الكوفة بقدومه دنوا اليه ، فبايعه منهم اثنا عشر ألفا على ذلك ، فقام رجل من أنصار يزيد بن معاوية الى النعمان بن بشير والى الكوفة فقال :

ــ انك رجل ضعيف أو مستضعف ، قد فسد البلد ٠

فقال له النعمان :

ــ لأن أكون ضعيفا فى طاعة الله أحب الى من أن أكون قويا فى معصيته ، ما كنت لأهتك سترا ستره الله ٠

وعزل يزيد النعمان وولى عبيد الله بن زياد مكانه ٠

لم يعتبر الحسين بما فعله أهل الكوفة مع أبيه وأخيه من قبل ، اذ عزم على الخروج الى العراق ولما رأى عبد الله بن العباس اصرار الحسين عـلى الخروج قال له :

ــ أتسير الى قوم قد قتلوا أميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ؟ فان كانوا قد فعلوا ذلك فسر اليهم ؟ وان كانوا انما دعوك اليهم وأمير عليهم قاهر لهم وعماله تجبى بلادهم فانهم انما دعوك الى الحرب والقتال ولا آمن

عليك ان يغروك ويكذبوك ويخالفوك ويخذلوك ، وأن يستنفروا اليك فيكونوا أشد الناس عليك ٠

فقال له الحسين : وانى أستخير الله وأنظر ما يكون ٠

أبى الحسين الا أن يمضى الى غايته ، فقال له عبد الله بن العباس :

ـ فان كنت سائرا ، فلا تسر بنسائك وصبيتك ، فانى لخائف أن تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه ٠

لم يلتفت الحسين الى نصح الناصحين ، بل سار الى الكوفة فى فئة قليلة لم يجاوز عددها ثمانين رجلا ، فلما اقترب منها ، بلغه نبأ مصرع مسلم بن عقيل فقال له بعض أصحابه :

ـ ننشدك الله ألا رجعت من مكانك ، فانه ليس لك بالكوفة ناصر بل نتخوف أن يكونوا عليك ٠

فوثب بنو عقيل وقالوا :

ـ والله حتى ندرك ثارنا أو نتذوق ما ذاق مسلم ٠

فقال الحسين : لا خير في العيش بعد هؤلاء ٠

فقال له بعض أصحابه :

ـ انك والله ما أنت مثل مسلم بن عقيل ، ولو قدمت الكوفة لكان الناس اليك أسرع ٠

سار الحسين حتى وصل الى كربلاء ، وتتابع ارسال الجيوش لقتاله ، والتقى الحسين بجيش عبيد الله بقيادة الحر بن يزيد فى ألف فارس ، وكانوا يلازمونه ويصدونه عن كل جهة الا نحو الكوفة مقر أميرهم عبيد الله ابن زياد ، فقال يعظهم :

« أيها الناس : ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله مخالفا لسنة رسول الله يعمل فى عباد الله بالاثم والعدوان ٠ فلم يغير ما عليه بفعل ولا بقول كان حقا على الله أن يدخله مدخله ، ألا وان هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد وعطلوا الحدود واستأثروا بالفئ وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غيرى وأنا الحسين بن علىّ وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نفسى مع أنفسكم وأهلى من أهلكم فلكم فى أسوة ، وان لم تفعلوا ، ونقضتم عهدى وخلعتم بيعتى ، فلعمرى ما هى لكم بنكيره والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم « ومن نكث فانما ينكث على نفسه » ، وسيغنى الله عنكم والسلام » ٠

وفي اليوم الثاني لنزوله كربلاء ، جاء عمر بن سعد بن أبي وقاص من الكوفة في أربعة آلاف مقاتل ، موفدا من عبيد الله بن زياد لقتاله ، ثم انضم الى جيشه الحر بن يزيد ، فلما سئل الحسين عما جاء به ، قال رضى الله عنه :

ـ كتب الى أهل مصركم هذا أن أقدم عليهم فأما أذكرهونى فانى أنصرف عنكم الى مكة .

فكتب عمر الى ابن زياد بذلك ، ثم التقى الحسين وعمر مرارا ، فكتب عمر الى عبيد الله بن زياد : « أما بعد ، فان الله أطفأ الثائرة وجمع الكلمة وقد أعطانى الحسين أن يرجع الى المكان الذى أقبل منه ، أو أن نسيره الى أى ثغر من الثغور شئنا أو يأتى يزيد أمير المؤمنين فيضع يده فى يده . وفى هذا لكم رضا وللأمة صلاح » .

فلما قرأ ابن زياد الكتاب قال : هذا كتاب رجل ناصح لأميره مشفق على قومه . نعم . قبلت . ولكن شمر بن ذى الجوشن رفض هذا الرأى ، وقال له :

ـ أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك والى جنبك ، والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز ، فلا تعطه هذه المنزلة ، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه ، فان عاقبت كنت ولى العقوبة ، وان عفوت كان ذلك لك .

أخذ ابن زياد برأى شمر فأرسله بكتاب الى عمر جاء فيه :

« ... أنظر فان نزل الحسين وأصحابه عن الحكم واستسلموا فابعث بهم الى مسلما ، وان أبوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون . فان قتل الحسين فأوطىء الخيل صدره وظهره فانه عاق شاق قاطع ظلوم ، فان أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع ، وان أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر والسلام » .

جمع الحسين رضى الله عنه أصحابه وقال :

ـ أثنى على الله أحسن الثناء وأحمده على السراء والضراء ، اللهم انى أحمدك على أن أكرمتنا بالنبوة ، وجعلت لنا أسماعا وأبصارا وأفئدة وعلمتنا القرآن وفقهتنا فى الدين فأجعلنا لك من الشاكرين ، أما بعد :

فانى لا أعلم أصحابا أوفى ولا خيرا من أصحابى ، ولا أهل بيت أبر ولا أوصل من أهل بيتى ، فجزاكم الله جميعا خيرا ، لقد بررتم وعاونتم ، والقوم

لايريدون غيري أحدا واني لأظن يومنا من هؤلاء الأعداء غدا ، واني قد أذنت لكم جميعا فانطلقوا في حل ليس عليكم مني ذمام • هذا الليل قد غشيكم فتفرقوا في سواده وأنجوا بأنفسكم •

فقال له أخوته وأبناؤه وبنو أخيه وابنا عبدالله بن جعفر :

ـ لم نفعل هذا لنبقى بعدك لا أرانا الله ذلك أبدا ، بدأهم بذلك العباس ابن علي وأتبعه الجماعة فتكلموا بمثله وقالوا :

ـ معاذ الله • وما نقول للناس اذ رجعنا اليهم ؟ نقول تركنا سيدنا وبني عمومتنا خير الأعمام ، ولم نرم معهم بسهم ، ولم نطعن معهم برمح ، ولم نضرب بالسيف • ولا ندري ما صنعوا ، لا والله لا نفعل نفديك بأنفسنا وأموالنا وأهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك • فقبح الله العيش بعدك •

وقام اليه مسلمة بن عوسجة الأسدي فقال :

ـ أنحن نتخلى عنك ولم نعذر الى الله في أداء حقك ، أما والله لا أفارقك حتى أكسر في صدورهم رمحي وأضربهم بسيفي ما يثبت قائمه بيدي ، ولو لم يكن معي سلاحي لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك •

وتكلم أصحاب بنحو هذا •

وكان علي بن الحسين تلك العشية مريضا تمرضه عمته السيدة زينب فسمع أباه وهو في خباء له وعنده جوين مولى أبي ذر الغفاري يعالج سيفه ويصلح والحسين يقول :

يا دهر أف لك من خليل
كم لك بالأشراق والأصيل

من صاحب أو طالب قتيل
والدهر لا يقنع بالبديل

وانما الأمر الى الجليل
وكل حي ، سالك السبيل

وأعادها مرتين أو ثلاثا فأدرك ما اعتزمه والده ولزم السكوت ، وسمعته زينب بنت الزهراء فلم تملك أن وثبت تجر ثوبها حتى انتهت اليه ونادت :

ـ واثكلاه ! ليت الموت أعدمني الحياة اليوم ، ماتت أمي فاطمة ، وعلي أبي ، وحسن أخي ، يا خليفة الماضي ، وثمال الباقي •

فنظر اليها الحسين وقال :

ـ يا أخية لا يذهبن بحلمك الشيطان •

قالت :

ــ بأبي أنت وأمي يا أبا عبدالله ، نفسي فداك !

قال الحسين :

ــ لو ترك القطا ليلا لنام

فقالت :

ــ واويلتاه ! أفتغصبك نفسك اغتصابا فذلك أقرح لقلبي وأشد على نفسي وأطول لحزني ، وخرت مغشيا عليها ٠

فقام اليها الحسين فصب الماء على وجهها ، وقال :

ــ اتقي الله وتعزي بعزاء الله ، وأعلمي أن أهل الأرض يموتون ، وأهل السماء لا يبقون ، وأن كل شيء هالك الا وجه الله ٠ أبي خير مني وأمي خير مني ، وأخي خير مني ، ولي ولكل مسلم برسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة ٠ فعزاها بهذا ونحوه ، وقال لها :

ــ يا أخيه أني أقسم عليك لاتشقي على جيبا ، ولا تخمشي وجها ، ولاتدعي على بالويل والثبور ٠ ان أنا هلكت ٠.

ثم خرج الى أصحابه فأمرهم أن يقربوا بيوتهم من بعض وأن يدخلوا الأطناب بعضها في بعض ، ويكونوا بين يدي البيوت فيستقبلون القوم من وجه واحد ، والبيوت عن يمينهم ، وعن شمالهم ومن ورائهم ، ورجع الى مكانه فقام الليل كله يصلي ويستغفر ، وقام أصحابه كذلك يصلون ويستغفرون ويدعون ٠ وخيول حرس عدوهم تدور من ورائهم ، تحرسهم حتى لا يفر أحد منهم ، وكأنما كان يريد القوم قتلهم كلهم ، والقضاء عليهم جميعهم ٠

وفي صباح اليوم التالي دارت المعركة الرهيبة بين الآلاف والعشرات ٠٠!
وجعل أصحاب الحسين رضي الله عنه ، يتقدمون رجلا بعد رجل فقاتلوهم قتالا مرا ، ولما استشهد أصحاب الحسين ، برز شباب بني هاشم بدورهم ، يدافعون عن والدهم ، وعمهم وابن عمهم ونسيبهم ، بقلوبهم وصدورهم ٠ وكان علي بن الحسين رضي الله عنه ، من أصبح الناس وجها ، وأكملهم أدبا ٠ فتقدم للقتال قبل غيره ، وهو ما يزال في التاسعة عشرة من عمره ، فشد على الجيش وهو يقول :

أنا علي بن الحسين بن علي ... نحن ورب البيت أولى بالنبي

تا لله لا يحكم فينا ابن الدعي

فعل ذلك مرارا ، يحمل فيرتد من أمامه من شدة حملته حتى صدمه مرة بن منقذ العبدي فطعنه فصرعه ، فلما رآه الحسين قال :

ـ قتل الله قوما قتلوك يابنى ! ما أجرأهم على الرحمن وعلى انتهـاك حرمة الرسول ، على الدنيا بعدك العفاء ٠

وأقبل الحسين فقال :

ـ أحملوا أخاكم ٠٠ فحملوه من مكانه حتى وضعوه بين يدى الفسطاط الذى كانوا يقاتلون أمامه ٠ واندفعت من خيام النساء امرأة كأنها الشمس طالعة ، تنادى فى جزع :

ـ يا أخياه ! ويا ابن أخياه ! ٠ وأكبت عليه ٠ فجاءها الحسين فأخذها بيدها فردها الى الفسطاط فسأل عنها من لا يعرفها ، فقيل :

ـ هذه زينب ابنة فاطمة بنت رسول الله ٠

وتتابعت قتلى بنى هاشم فسقط عبدالله بن مسلم بن عقيل ، وعون بن عبدالله بن جعفر ، ومحمد بن عبدالله بن جعفر ، وعبد الرحمن بن عقيـل بن أبى طالب ، وجعفر بن عقيل ٠

ثم خرج القاسم بن الحسن بن على وبيده السيف ، وهو غلام كأن وجهه شقة القمر ، فحمل عليه عمرو بن سعد بن نفيل الأزدى فضرب رأسـه بالسيف ، فسقط القاسم الى الأرض لوجهه وهو يقول :

ـ ياعماه !

فانقض الحسين عليه كالصقر ثم شد شدة ليث أغضب ، وضرب عمروا بالسيف فاتقاه بالساعد فقطعها من المرفق ٠

وحملت خيل القوم ليستنقذوا عمروا فاستقبلته بصدورها وجالت عليه بفرسانها فوطئته حتى مات ٠

وانجلت الغبرة والحسين واقف على رأس القاسم ، وهو يفحص برجليه ، والحسين يقول :

ـ بعدا لقوم قتلوك ، ومن خصمهم يوم القيامة فيك جدك ٠

ثم قال :

ـ أعز والله على عمك أن تدعوه فلا يجيبك ، أو يجيبك ثم لا ينفعك !

ثم احتمله على صدره حتى ألقاه مع ابنه على ومن قتل معـه من أهـل بيتـه ٠

رجع الحسين الى فسطاطه ٠ فتقدم اليه شمر بن ذى الجوشن برجاله ، وهو يحرضهم عليه ٠ واقبل الى الحسين عبدالله بن الحسن بن على وهو غلام

لم يراهق فقام الى جنبه وقد أهوى بحر بن كعب الى الحسين بالسيف فقال الغلام :

ـ يا ابن الخبيثة أتقتل عمى ؟ !

فضربه بالسيف فأتقاه الغلام بيده ، فقطعها الى الجلد ، فصرخ الغلام فاعتنقه الحسين وقال له :

ـ يا ابن أخى ، اصبر على ما نزل بك واحتسب فى ذلك الخير ، فان الله يلحقك بآبائك الصالحين ٠

ورفع الحسين بصره الى السماء يناجى الله قائلا :

ـ اللهم أمسك عنهم قطر السماء ، وأمنعهم بركات الأرض ، اللهم فان متعتهم الى حين ففرقهم فرقا ، واجعلهم طرائق قددا ، ولا ترض عنهم الولاة أبدا ، فانهم دعونا لينصرونا ، فعدوا علينا فقتلونا ٠

ثم قاتل من أمامه فانكشفوا عنه وبقى الحسين فى ثلاثة رهط أو أربعة ٠

ولما قتلوا وبقى الحسين وحده ، وقد اثخن بالجراح فى رأسه وبدنه ، حمل الناس عليه عن يمينه وشماله ، فحمل على الذين عن يمينه ، فتفرقوا ، ثم حمل على الذين عن يساره فتفرقوا ، فما رئى رجل قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشا ولا أمضى جنانا ، ولا أجرأ مقدما منه ٠ اذ كانت الرجالة لتنكشف عن يمينه وشماله كلما شد عليها ، وبينما هو كذلك اذ خرجت زينب وهى تقول :

ـ ليت السماء انطبقت على الأرض ٠ ونظرت الى عمر بن سعد وقالت :

ـ ياعمر ، أيقتل أبو عبدالله وأنت تنظر ؟ !

فدمعت عيناه حتى سالت دموعه على خديه ولحيته ، وصرف وجهه عنها والحسين يقاتل قتال الفارس الشجاع ، يتقى الرمية ، ويشد على الخيل وهو يقول :

ـ أعلى قتلى تجتمعون ! أما والله لاتقتلون بعدى عبدا من عباد الله أسخط عليكم لقتله منى ٠ وايم الله انى لأرجو أن يكرمنى الله بهوانكم ، ثم ينتقم لى منكم من حيث لاتشعرون ، أما والله ان لو قد قتلتمونى لقد ألقى الله بأسكم بينكم وسفك دماءكم ، ثم لا يرضى لكم حتى يضاعف لكم العذاب الأليم ٠

ومكث طويلا من النهار ، ولو شاء الناس أن يقتلوه لفعلوا ، ولكنهم كان يتقى بعضهم ببعض ، ويحب أن يكفيهم هؤلاء ٠ فلما رأى ذلك شمر بن ذى الجوشن استدعى الفرسان فصاروا فى ظهور الرجالة وأمر الرماة أن يرموه ، فرشقوه بالسهام فأحجم عنهم فوقفوا بازائه فنادى شمر فى الناس :

ـ ويحكم ! ماذا تنتظرون بالرجل ! اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم !!
فحملوا عليه من كل جانب ، وضربه زرعة بن شريك التميمي على كفه اليسرى فقطعها ، وضربه آخر على عاتقه فكبا منها لوجهه فانصرفوا عنه ، وهو يقوم ويكبو ، وحمل عليه فى تلك الحال سنان بن أنس النخعى ، فطعنه بالرمح فصرعه ، وبدر اليه خولى بن يزيد الأصبحى فنزل ليحتز رأسه فأرعد ٠

فقال له سنان :
ـ فت الله فى عضدك ، ونزل اليه وذبحه ، واحتز رأسه ثم دفعه الى خولى وسلب القوم الحسين ما كان عليه وتركوه مسجى فى العراء ٠

وانتهب الناس حلله وأبله وأثقاله ومتاعه ، وسلبوا نساءه ، حتى أن كانت المراة لتنازع ثوبها عن ظهرها ، حتى تغلب عليه ، فيؤخذ منها ، ووجد بالحسين ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير الرمية ٠

روى الدم الزكى أرض العراق ، وأهدر دم أهل البيت ، ونكل بهم ، ولما يمضى على وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم خمسون سنة، روى أبو خالد الأحمر قال :
دخلت على أم سلمة وهى تبكى ، فقلت : ما يبكيك ؟
قالت : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المنام وعلى رأسه ولحيته التراب ، فقلت : مالك يا رسول الله ؟ قال : شهدت قتل الحسين ٠

وروى عن ابن عباس أنه قال :
ـ رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرى النائم وهو قائم ، أشعث أغبر ، بيده قارورة فيها دم ٠ فقلت : بأبى أنت وأمى يارسول الله ! ما هذا الدم ؟
قال : هذا دم الحسين لم أزل التقطه منذ اليوم ٠

كان لمقتل الحسين رضى الله عنه فى أرض كربلاء أثر عميق فى اذكاء نار التشيع فى نفوس الشيعة أنصار على بن أبى طالب رضى الله عنه وأولاده من بعده ، وتوحيد صفوفهم وكانوا قبل ذلك متفرقى الكلمة ، مشتتى الأهواء ، اذ كان التشيع قبل مقتل الحسين رأيا سياسيا نظريا ، فلما قتل الحسين ، امتزج التشيع بدمائهم وأصبح عقيدة راسخة فى قلوبهم ٠

وقد ظهرت طائفة التوابين الذين يدعون الناس للأخذ بثأر الحسين ، وينظمون القصائد فى رثائه وتحريض الناس على القتال ، من ذلك قول عبدالله بن الأحمر ٠

صحوت وقد صحوا الصبى والعواديا

وقلت لأصحابى : أجيبوا المناديا

وقولوا له اذ قام يدعو الى الهدى

وقيل الدعى : لبيك لبيك داعيا

ألا وانع خير الناس جدا ووالدا

حسينا لأهل الدين ان كنت ناعيا

وأضحى حسين للرماح دريئة

وغودر مسلوبا لدى الطف ثاويا

فيا ليتنى اذ ذاك كنت شهدته

فضاربت عنه الشانئين الأعاديا

* * *

قتل الحسين رضى الله عنه فى العاشر من شهر المحرم سنة ٦١ هـ ٠ فأرسل الىيزيد بنمعاوية الذىردالرأس الشريف الى الجسد الطاهر،ودفنافى دمشق ، ثم نقلت فى عهد الفاطميين الى عسقلان بفلسطين ، وكان الفاطميون قد استولوا عليها حين فتحوا بلاد الشام ٠

فلما تقلد الأفضل ابن أمير الجيوش بدر الجمالى الوزارة ، أخرج رأس الحسين ، وعطره ، وحمله على صدره ، وسعى به ما شيا ، الى أن أحله فى مقره الذى هو فيه بالقاهرة ، حيث المشهد الحسينى ٠

عقيلة بني هاشم

كان البيت النبوى الكريم ينتظر ساعة الوضع فى لهفة وترقب ، فقد أوشكت فاطمة الزهراء رضى الله عنها أن تضع مولودا جديدا بعد أن رزقت بالحسن والحسين ، وثالث لم يقدر له أن يعيش هو المحسن بن على ٠

وأذيعت البشرى أن الزهراء وضعت أنثى سميت زينب تيمنا بخالة الوليدة الجديدة ، السيدة زينب بنت المصطفى عليه السلام ٠

وذكر فى رواية أخرى : لما ولدت زينب فى شعبان من السنة الخامسة للهجرة جاءت بها أمها الزهراء الى أبيها على بن أبى طالب رضى الله عنه ، وقالت له :

ـ سم هذه المولودة ٠

فقال لها :

ـ ما كنت لأسبق رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ وكان فى سفر له ٠

ولما جاء النبى صلى الله عليه وسلم سأله على عن اسمها فقال :

ـ ما كنت لأسبق ربى تعالى ٠

فهبط جبريل عليه السلام يقرأ على النبى السلام من الله الجليل ، وقال له :

ـ سم هذه المولودة زينب فقد اختار الله لها هذا الاسم ٠

ورويت روايات حول مولد زينب حفيدة المصطفى ٠ روايات ان لم يكن لها موضع فى كتب التاريخ المحققة تحقيقا علميا ، الا أن لها أثرها فى الوجدان ٠

فقد تحدثوا أنه ذاعت نبوءة عند مولدها ، بما ينتظرها من محن وآلام ، وبالفجيعة التى ستصاب بها فى كربلاء ، وروى أن سلمان الفارسى رضى الله عنه أقبل على على بن أبى طالب رضى الله عنه ، يهنئه بالمولودة الجديدة ، فوجده حزينا واجما ، وحدثه عما ستلقاه يوم كربلاء ٠

وفى سنن الامام أحمد بن حنبل أن جبريل أخبر المصطفى عليه السلام بمصرع الحسين رضى الله عنه وأهل البيت فى كربلاء ٠

ورُوى أيضا أن زينب بنت الزهراء كانت تتلو يوما بعض آيات القــرآن الكريم ، ثم توجهت تسأل أباها تفسير بعض هذه الآيات ، فأجابها رضى الله عنه . ثم استطرد يلمح لها الى الدور الخطير الذى ستلقاه ، فأجابته رضى الله عنها :

ــ اعرف ذلك يا أبى ، اخبرتنى به أمى كيما تهيئنى لغدى !

ودهش الامام على ، اذ كانت ابنته تعلم من أمها فاطمة الزهراء ما ينتظرها من أحداث دامية ، فاطرق وجهه صامتا ، وقلبه يخفق رحمة وحنانا وشفقة على ابنته الحبيبة .

عاشت زينب منذ مولدها فى المهد الحزين ، الذى لفته النبوءة المؤلمة .. ولقد لقيت من جدها الاعظم كل عطف وحنان ومحبة ، وأسبغ عليهــا نور النبوة والحكمة ، ودرجت تلك الدرة اليتيمة ، فى بيت الرسالة ، ورضعت لبان الوحى من ثدى الزهراء البتول ، وغذيت بغذاء الكرامة من كف ابن عم الرسول ، فنشأت نشأة قدسية ، وربيت تربية روحانية ، متجلببة جلابيب الجلال والعظمة ، مرتدية رداء العفاف والحشمة .

وقد فقدت السيدة زينب جدها صلى الله عليه وسلم وهى بنت خمس ، وفقدت أمها الزهراء بعد ذلك بشهور قليلة لا تتجاوز الستة ، فحزنت لفقدهما حزنا عميقا جعلها أنضج أدراكا وأرهف حسا ، فتحملت وهى صبية صغيرة ، عبء ادارة بيت أبيها ورعاية شئون أخواتها .

* * *

شبت زينب الطاهرة عن الطوق ، ونما عودها أفضل نماء ، وزكا نباتها الطيب فى روضة النبوة ، ودوحة الرسالة ، وجملها ربها بدنا وروحا ، وطبعا وخلقا ، وعندما بلغت مبلغ الزواج تهافت عليها الطلاب من شباب هاشم وقريش ، ذوى الرفعة والشرف . لكن على بن أبى طالب كرم الله وجهــه ، اختار لفتاته ، عبدالله بن جعفر .

أبوه جعفر بن أبى طالب ، ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأخو على بن أبى طالب لأبويه ، وكان أشبه الناس بالمصطفى عليه السلام خلقا وخلقــا .

وصفه أبو هريرة رضى الله عنه فقال :

ــ « ما احتذى النعال ولا ركب المطايا ولا وطيء التراب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جعفر بن أبى طالب » .

وكان الرسول يكنيه أبا المساكين .

هاجر بديفه الى الحبشة ابان اضطهاد الارستقراطية القرشية لدعـــوة الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من عند ربه جل جـلاله ، ثم رجع مع من رجع من المسلمين ، وصادف وصوله الى المدينة المنورة فتح خيبر فالتزمه الرسول ، وجعل يقبله بين عينيه ويقول :

ـ « ما أدرى بأيهما أنا أشد فرحا ، بقدوم جعفر أم بفتح خيبر ؟ »

وأنزله الرسول الأعظم الى جنب المسجد ٠

سار مع كتيبة الايمان التى توجهت الى بلاد الروم فى الســـنة الثامنـة للهجرة ، وقد جعل الرسول لواء ذلك الجيش لزيد بن حارثة ، فان أصيب، فجعفر بن أبى طالب على الناس ٠

ومضت كتيبة الايمان حتى اذا كانت بتخوم البلقـــاء ، لقيتهم جيوش « هرقل » فانحاز المسلمون الى قرية « مؤتة » ودارت معركة رهيبة ، قاتل فيها « زيد » براية الرسول الكريم حتى شاط (١) فى رماح القــوم ، ثم أخذها جعفر بن أبى طالب ٠ فقاتل بها حتى اذا ألحمه القتـال عن فرس له شقراء فعقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل ، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر فى الاسلام فرسه ٠

وروى أن الرسول الكريم لما أتاه نعى جعفر ، دخل على أمرته أسماء بنت عميس ، فعزاها فيه ، ودخلت فاطمة وهى تبكى وتقول :

ـ واعماه !

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

ـ على مثل جعفر فلتبك البواكى ٠

ودخله من ذلك حزن شديد حتى أتاه جبريل ، فأخبره أن الله قد جعل لجعفر جناحين مضرجين بالدم يطير بهما مع الملائكة فى الجنة ٠

وكان عبدالله بن جعفر أول مولود ولد فى الاسلام فى هجرة الحبشة ، وبايع الرسول صلى الله عليه وسلم وهو ابن سبع سنين ، وزاد حبه له وعطفه عليه بعد موت أبيه جعفر ، حتى أنه مسح على رأسه وقال :

ـ « اللهم أخلف جعفرا فى أهله وبارك لعبدالله فى صفقة يمينه ـ قالها ثلاث ـ وفيه ـ وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة » ٠

---

(١) يقال : شاط الرجل ، اذا سال دمه فهلك ٠

كان عبدالله كريما جوادا حليما ، يسمى بحر الجود . وقد وصفه ابن عباس رضى الله عنهما فقال : « كان لله ذكورا ، ولنعمائه شكورا ، وعن الخنا زجورا ، جواد كريم ، وسيد حليم ، ان ابتدأ أصاب ، وان سـئل أجاب ، غـير حصر ولا هياب ، ولا فحاش عياب ، حل من قريش فى كريم النصاب كالهزبر الضرغام ، الجرىء المقدام ، ليس يدعى لدعى ، ولا يدنو لدنى » .

ولما مات سنة ثمانين هجرية ، شهد جنازته أهل المدينـة كلهم ، ورثاه الكثيرون ومنهم أبان بن عثمان أمير المدينة الذى وقف على حـافة قـبره ، ودموعه تسيل على خديه ، وهو يقول :

– كنت والله خيرا لا شر فيك ، وكنت والله شريفا واصلا برا .

وقال هشام المخزومى : أجمع أهل الحجاز والبصرة والكوفة على أنهم لم يسمعوا بيتين أحسن مما كتب على قبر عبدالله وهما :

مقيم الى أن يبعث اللـه خلقـه
لقـاؤك لا يرجـى وأنت قـريب

تزيـد بلى فى كل يـوم وليـلة
وتنسـى كمـا تبـلى وأنت حبيب

هذا هو الذى اختاره الامام على بن أبى طالب زوجا لابنته الطاهرة زينب ، التى بلغت من تعلق أبيها بها ، أن أبقاها معه ، حتى اذا ولى أمر المسلمين وانتقل الى الكـوفة ، انتقلت وزوجها فعاشا فى مقـر الخلافة فى رعاية أمير المؤمنين .

* * *

خرجت السيدة زينب مع الحسين وبقية أهل البيت الى كربلاء ، حيث استشهد الحسين رضى الله عنه ..

تحرك موكب الأسرى والسبايا من أهل البيت النبوى الكريم . وما كاد الركب يمر على ميدان المعركة ، حتى صاحت النساء . ولطمن خدودهن ، وصاحت زينب :

– يا محمداه صلى عليك ملائكة السماء ، هـذا الحسـين بالعـراء مرمل بالدماء مقطع الأعضاء ، يا محمداه هذه بناتك سبايا وذريتك مقتـلة تسفى عليها الصبا .

فأبكت كل عدو وصديق .

ودخل الموكب الحزين الكـوفة .

وتجمع أهل الكوفة يبكون ، فقالت لهم زينب ، مبكتة مؤدبة ، مقــومة مهــذبة :

ـ « يا أهل الكوفة ؟

أتبكون ؟ ! فلا سكنت العبرة ، ولا هدأت الرنة !

انما مثلكم مثل التى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، تتخــذون أيمانكم دخلا بينكم ، ألا ساء ما تزرون !

أى والله ، فابكوا كثيرا ، واضحكوا قليلا ، فقد ذهبتم بعارها وشنارها ، فلن ترحضوها ـ لن تغسلوها ـ أبدا ٠

وكيف ترحضون قتل سبط خاتم النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومدار حجتكم ، ومنار محجتكم ، وهو سيد شبات أهل الجنة !

لقد أتيتم بها خرقاء شوهاء !

أتعجبون لو أمطرت دما ؟

ألا ساء ما سولت لكم أنفسكم ، ان سخط الله عليكم وفى العــذاب أنتم خالدون ٠

أتدرون أى كبد فريتم ، وأى دم سفكتم ، وأى كريمة أبرزتم ، لقــد جئتم شيئا ادا ، تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبــال هدا »

ضج الناس بالبكاء والعويل وفزعوا من هول ما سمعوا ، وسقط فى أيديهم ، وبلغ بهم الأسف مبلغه ، ووجفت القلوب ، واقشعرت الأجساد من هول تلك المحنة الدهماء ٠

وعندما ادخل أهل البيت النبوى الكريم الى حيث عبيد الله بن زياد والى الكوفة ، تذكرت السيدة زينب رضى الله عنهــا تلك القاعة التى كان يجلس فيهــا ـ من قبل ـ أبوها الامام على بن أبى طالب ، دخلتهــا هــذه المرة وقلبها متصدع مما مر بهــا من أحداث جسام ، ولكنها لاذت بكل كبريائها وعزة نفسها وكرامة محتدها ، معتزة بعلو حسبها ونسبها الشريف ، ملتفة بجلال النبوة ، وجلست منتحية ناحية من القاعة تحف بها اماؤها ٠

فتساءل ابن زياد عن هذه المنحازة وحدها ومعها نساؤها ٠

فقال بعض امائها :

– هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت الامام على كرم الله وجهه ·
فقال متشفيا فيها :
– الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأكذب أحدوثتكم ·

فردت عليه السيدة زينب بكل اباء وشمم :
– الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه صلى الله عليه وسلم وطهرنا من الرجس تطهيرا ، انما يفتضح الفاجر ويكذب الفاسق وهو غيرنا ·

فلم يصبر ابن زياد على قولها ، بل رد عليها قائلا :
– كيف رأيت صنع الله فى أهل بيتك وأخيك ؟

هنا تتجلى أسمى معانى الايمان العميق والصبر الجميل والشجاعة النادرة فى قولها له :
– ما رأيت الا خيرا · هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتال فبرزوا الى مضاجعهم ، وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاج وتخاصم ، فانظر لمن الفلج يومئذ · ثكلتك أمك يا ابن مرجانة !

فأثار هذا الرد الحازم حفيظة ابن زياد ، فقال لها وهو فى أشد حالات الغيظ :
– لقد شفى الله قلبى من طاغيتك الحسين والعصاة المردة من أهل بيتك ·
فقالت له :
– لعمرى لقد قتلت كهلى وقطعت فرعى واجتثثت أصلى فان كان فى هذا شفاؤك فلقد اشتفيت ·

أثار هذا النقاش بينها وبين ابن زياد حماس وغيرة على بن الحسين رضى الله عنهما على عمته ، فانبرى صائحا بابن زياد :
– الى كم تهتك عمتى بين من يعرفها ومن لا يعرفها ؟

فالتفت اليه وقال : من أنت ؟
فرد عليه فى ثبات :
– أنا على بن الحسين ·
قال ابن زياد :
– أليس الله قتل على بن الحسين ؟
قال على :
– كان لى أخ يسمى عليا قتله الناس بأسيافهم ·

فقال ابن زياد :
ــ بل قتله الله ·
قال علي في ايمـان عميق :
ــ « الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها » ·

فيسأله ابن زياد في دهشة وعجب :
ــ أو بك جرأة على جوابي وفيك بقية للرد ؟ ثم صاح بغلمانه أن يذهبوا به فيضربوا عنقــه ·

فتعلقت به عمته السيدة زينب وقالت :
ــ يا ابن زياد حسبك من دمائنا ما ارتويت وسفكت ، وهل أبقيت أحدا غير هــذا ؟ والله لا افارقه فان قتلته فاقتلني معه ·

وقال علي :
ــ اسكتي يا عمة حتى أكلمه ، والتفت اليه قائلا :
ــ أبالقتل تهــددني ، أما علمت أن القتل لنا عادة وكرامتنا من اللــــه الشــهادة ؟

فنظر ابن زياد اليها فترة ثم قال :
ــ عجبا للرحم ، والله اني لأظنهــا ودت لو أني قتلتها معه ، دعوه فاني أراه لمـا به مشغولا ·

• • •

ولـما أصبح ابن زياد أمر برأس الحسين رضي الله عنه فطيف به على رمح في الكوفة ، ثم أنفذوه مع رؤوس أصحابه الى يزيد بن معاوية ، وأمر بنسائه وصبيانه ، فجهزوا وحملوا على الأقتاب وسرح بهم الى دمشق ، وعلي بن الحسين مقيد مغلول اليدين ·

فلما مثلوا بين يدي يزيد وأمامه الرأس الشريف ، تطاولت فاطمة وسكينة ابنتا الحسين رضي الله عنهم ينظران الى الرأس والدموع هاطلة ، والأفئــدة واجمة ، والقلوب مضطربة ، وأحسن يزيد بذلك ، فاضطرب وجعل يتطاول بدوره ليستر الرأس الشريف عنهما ·

وكان في مجلس يزيد رجل شامي ضخم الجثة أحمر الوجه ، ظل يحدق في فاطمة بنت علي ــ وكانت شابة وضيئة ــ ويلتهمها بنظرات جشــعة ، فأجفلت منه خائفة مشمئزة ، وقام الرجل الى يزيد فقال :
ــ هب لي هــذه ·

خافت فاطمة ، وأخذت بثياب أختها زينب ، فقالت السيدة زينب :
ـ كذبت والله ولؤمت ! ما ذلك لك وله ·
فغضب يزيد ، وقال :
ـ كذبت والله ، ان ذلك لى ، ولو شئت أن أفعله لفعلت ·
قالت زينب :
ـ كلا والله ، ما جعل الله ذلك لك الا أن تخرج من ملتنا ، وتدين بغير ديننا ·
فاستطار يزيد غضبا وقال :
ـ اياى تستقبلين بهذا ؟ انما خرج من الدين أبوك وأخوك ·
فقالت زينب :
ـ بدين الله ودين أبى ودين أخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك ·
قال يزيد :
ـ كذبت يا عدوة الله ؟ !!
قالت زينب :
ـ أنت أمير مسلط ، تشتم ظالما ، وتقهر بسلطانك ·
فاستحى يزيد وسكت عنها ·

وعاد الشامى يقول :
ـ يا أمير المؤمنين ، هب لى هذه الجارية ·

فقال يزيد :
ـ أغرب ، وهب الله لك حتفا قاضيا !

كشف يزيد عن رءوس الشهداء وانثنى يعبث بقضيب فى يده ، بثنايا الحسين رضى الله عنه ، ويقول شامتا متشفيا ·

يا غـــراب البين أســـمعت ، فقل
انمـــا تذكـــر شـــيئا قد فعـــل

ليت أشـــياخى ببـــدر شـــهدوا
جـزع « الخزرج » من وقع الأســل

لا هلـــوا واســـتهلوا فرحـــا
ثم قالـــوا يا « يزيـد » لا تشـــل

فانبرت له السيدة زينب فى ثقة وايمان ، وثبات جنان ، وجعلت تردعه وتزجره ، وتلطم غروره بهذه اللطمات ، قالت :

(الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله وآله أجمعين ، صـــدق

الله سبحانه حيث يقــول : « **ثم كان عاقبة الذين اساءوا السوءى ان كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزءون**(١) » ٠

أظننت يا يزيد حين أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء ، فأصبحنا نساق كما تساق الأسارى ، أن بنا هوانا على الله وبك عليه كرامة ، وأن ذلك لعظيم خطرك عنده ، فشمخت بأنفك ونظرت فى عطفك تضرب أصدريك(٢) فرحا ، وتنفض مذوريك(٣) مرحا جذلان مسرورا ، حين رأيت الدنيا لك مستوسقة ، والأمور متسقة ، وحين صفا لك ملكنا وسلطاننا ، فمهلا مهلا أنسيت قول الله تعالى :

« **ولا يحسبن الذين كفروا انما نملى لهم خير لأنفسهم انما نملى لهم ليزدادوا اثما ولهم عذاب مهين** (٤) » ٠

أمن العدل يا ابن الطلقاء(٥) تخديرك حرائرك واماءك وسوقك بنات رسول الله سبايا قد هتكت ستورهن ، وأبديت وجوههن ، تحدو بهن الأعـــداء من بلد الى بلد ، ويستشرفهن أهل المناهل والمناقل ، ويتصــفح وجوههن القريب والبعيد ، الدني والشريف ، ليس معهن من رجالهن ولى ، ولا من حماتهن حمى ، وكيف يرتجي مراقبة من لفظ فوه أكباد الأذكياء ونبت لحمه من دماء الشهداء ، وكيف يستبطأ فى بغضنا أهل البيت من نظر الينـــا بالشنف والشنآن ، والأحن والأضغان ، ثم تقول غير متأثم ولا مستعظم :

لا هلــوا واســتهلوا فرحا ثم قالوا يا يزيد لا تشل

منحنيا على ثنايا أبى عبد الله سيد شباب أهل الجنة تنكتها بمخصرتك ، وكيف لا تقول ذلك وقد نكأت القرحة ، واستأصلت الشأفة ، باراقتك دماء ذرية محمد صلى الله عليه وسلم ونجوم الأرض من آل عبد المطلب ، وتهتف باشياخك زعمت أنك تناديهم ، فلتردن وشيكا موردهم ولتودن أنك شللت وبكمت ولم تكن قلت ما قلت ، وفعلت ما فعلت ، اللهم خذ لنا بحقنا ، وانتقم ممن ظلمنا ، وأحلل غضبك بمن سفك دماءنا وقتل حماتنا ، فوالله يا يزيد ما فريت الا جلدك ولا حززت الا لحمك ، ولتردن على رسول الله

---

١ ــ سورة الروم : ١٠ ٠
٢ ــ منكبيك ٠
٣ ــ المذوران : جانبا الاليتين ولا واحد لها ، أى ماضيا يتهدد ٠
٤ ــ سورة آل عمران : ١٧٨ ٠
٥ ــ الطلقاء : هم آباء يزيد الذين أطلقهم الرسول صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ٠ فقال ، أذهبوا فأنتم الطلقاء

صلى الله عليه وسلم بما تحملت من دماء ذريته وانتهكت من حرمته فى عترته ولحمته ، حيث يجمع الله شملهم ويلم شعثهم ويأخذ بحقهم ٠

« ولا تحسبين الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » ٠

وحسبك بالله حاكما وبمحمد صلى الله عليه وسلم خصيما وبجبريل ظهيرا ، وسيعلم من سول لك وأمكنك من رقاب المسلمين — بئس للظالمين بدلا — أيكم شر مكانا وأضعف جندا ، ولئن جرت على الدواهى مخاطبتك ، انى لأستصغر قدرك ، وأستعظم تقريعك وأستكثر توبيخك ، لكن العيون عبرى ، والصدور حرى ، ألا فالعجب كل العجب لقتل حزب الله النجباء ، بحزب الشيطان الطلقاء ، فهذه الأيدى تنطف من دمائنا ، والأفواه تتحلب من لحومنا ، وتلك الجثث الطواهر الزواكى تنتابها العواسل (الذئاب) ، وتعفرها أمهات الفراعل (الضباع) ، ولئن أتخذتنا مغنما لتجدنا وشيكا مغرما ، حين لا تجد ألا ما قدمت يداك وما ربك بظلام للعبيد ، والى الله المشتكى وعليه المعول ، فكد كيدك ، واسع سعيك ، وناصب جهدك ، فوالله لا تمحو ذكرنا ، ولا تميت وحينا ، ولا تدرك أمدنا ، ولا تدحض عنك عارها ، وهل رأيك الا فند (كذب) ، وأيامك الا عدد ، وجمعك الا بدد ، يوم ينادى المنادى ألا لعنة الله على الظالمين ، فالحمد لله رب العالمين الذى ختم لأولنا بالسعادة والمغفرة ٠ ولآخرنا بالشهادة والرحمة ، نسأل الله أن يكمل لهم الثواب ، ويوجب لهم المزيد ويحسن علينا الخلافة انه رحيم ودود وحسبنا الله ونعم الوكيل » ٠

لم يستطع يزيد مع ما هو عليه من سلطان وملك وهيبة يخشاها أكثر الناس ، أن يقاطع كلام السيدة زينب ، أو أن يمنعها من الاستمرار فيه ٠ مع أنه من لاذع القول ، رغم وجودها فى ذلة الأسر دامية القلب دامعة العين مما مر بها من أحداث جسام ٠

وأراد يزيد بن معاوية أن يخرج من هذا المأزق الذى وقع فيه والحرج الشديد الذى أصابه من افتضاح حقيقة أمره ، فلم يستطع أن ينطق بغير هذه الكلمة :

يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون النوح على النوائح

وأراد يزيد أن يكفر ولو بعض الشىء عن سوء صنيعة وشنيع فعلته،فعرض على السيدة زينب الأموال الكثيرة التى نهبت منها وكذلك غيرها لتأخذها عوضا عن الحسين رضى الله عنه وأنصاره ٠ فقالت :

ـ يا يزيد ما أقسى قلبك ، تقتل أخي وتعطيني المـــال ، والله لا كان ذلك أبدا ٠

وأمر يزيد ، النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم في رحلتهم الى المدينة المنورة وأن يصحبهم في ركبهم اليهـا ، فخرج ومعه بعض رجاله ومنهم بشر بن حذلم ، فأحسنوا الصحبة طول الطريق الى المدينة ، وكان بشر محبا لله ولرسوله ولآل البيت النبوي الكريم ، على خوف من بني أميـة وكان لسان حاله يقـــول :

أحب الحســـين ولكنـــــما
لســـاني عليـــه وقلبي معـه

حبست لســـاني عن مدحـــه
ضرار أميــــة أن تقطعــــه

اذا الفتنة اضطرمت في البلاد
ورمت النجـــاة فكـــن أمعـه

ولـما بلغوا مشارف المدينة المنورة قالت فاطمة بنت علي لأختها زينب :
ـ يا أخية ، لقد أحسن هذا الرجل الينا في صحبتنا فهل لك في أن نصـــله ؟
أجابت السيدة زينب :
ـ والله ما معنا شيء نصله الا حلينا ٠

وأخرجتا سوارين لهما ودملجين ، فبعثتا به الى الرجل ، معتذرتين اليه عن ضآلة الهـــدية ٠ ولكن الرجل رد اليهما الحـــلي قائلا :
ـ لو كان الذي صنعت انما هو للدنيا كان في حليكن ما يرضيني ودونه ، ولكن والله ما فعلته الا لله ، ولقرابتكم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠

* * *

تولى على المدينة ذهول عميق ، وروعة عظيمة ، عندما سمعت بشر بن حذلم يرفع صوته بالبكاء وينشد قائلا :

يا أهـل يثرب لا مقـام لكم بهـا
قتـل الحســـين فأدمعي مدرارا
الجســـم منه بكـــربلاء مضـــرج
والرأس منـــه على القنـــــاة يدار

ثم نادى : هذا علي بن الحسين مع عماته وأخواته قد حلوا بســـاحتكم ونزلوا بفنائكم ، وأنا رسوله اليكم أعرفكم مكانه ٠

فخرج الجميع رجالا ونساءا ولم ير أكثر من ذلك اليوم باكيا أو باكية وهم يستقبلون ذلك الركب الكريم وينادى قائلا :

أترجـــو أمة قتـلت حسـنيا
شــفاعة جــده يوم الحســاب

واندفعت زينب بنت عقيل بن أبى طالب ، ومعها نساؤها وهى حاسرة تلوى بثوبها وتصرخ :

ماذا تقـولون ان قال النبى لـكم
ماذا فعلتـم ، وأنتــم آخــر الأمم
بعــترتى وبأهــلى بعـد مفتقدى
منهم أســارى ، ومنهم ضرجوا بدم
ما كان هذا جزائى اذ نصحت لـكم
أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

ولما سمع والى المدينة عمرو بن سعد (١) أصواتهن وصعد المنبر فأعلم الناس بمقتل الحسين رضى الله عنه ،

ولما بلغ عبد الله بن جعفر قتل أبنيه ، استرجع ، فدخل عليه بعض مواليه والناس يعزونه فقال :

ـ هذا ما لقينا من الحسين ،

فحذفه ابن جعفر بنعله وقال :

ـ يا ابن اللخناء ، اللحسين تقول هذا ؟ والله لو شهدته لأحببت أن لا أفارقه حتى أقتل معه ، والله أنه لما يهون على المصاب بهما أنهما أصيبا مع أخى وابن عمى ، مواسيين له ، صابرين معه ، وان لم تكن آست الحسين يدى ، فقد آساه ولداى ،

* * *

كان وجود السيدة زينب فى المدينة المنورة كافيا ، لأن تلهب المشـاعر وتؤلب الناس على الطغاة ، فقد راحت تخطب الجماعات مظهرة عدوان يزيد بن معاوية وبغى عبدالله بن زياد وطغيان أعوانهما على أهل البيت النبوى الكريم ، فأثارت الثائرة وهيجت الألباب ، ولفتت أنظار الاحرار الى الدم المسفوك ، والثأر المضيع ، حتى كاد الامر يفسد على بنى أمية ، فكتب عمرو بن سعد والى المدينة ليستنجد بيزيد ويقول له :

« ان وجودها بين أهل المدينة مهيج للخواطر ، وأنهـا فصـيحة عاقلة لبيبة ، وقد عزمت هى ومن معها على القيام للأخذ بثأر الحسين » ،

---

(١) قتل الملك بن مروان عمرو بن سعد بعد ذلك قتلة فظيعة ،

فأمره يزيد أن يفرق البقية الباقية من أهل البيت النبوى الكريم فى الأقطار والأمصار ، وطلب الوالى الى السيدة زينب أن تخرج من المدينة فتقيم حيث تشاء . وقد عز ذلك وعظم عليها أن ترحل من أرض الآباء والأجداد ، مهبط الوحى ، وحيث توجد الأعظم العطرات لآلها ، وقالت :

ــ قد علم الله ما صار اليه أمرنا ، قتل خيرنا ، وسيق الباقون كما تساق الأنعام ، وحملنا على الأقتاب . فوالله لاخرجنا وان أريقت دماؤنا .

واجتمع عليها نساء بنى هاشم وتلطفن معها فى الكلام وواسينها وحبذن لها الخروج .

وقالت لها زينب بنت عقيل بن أبى طالب :

ــ يا بنت عماه ، قد صدقنا الله وعده وأورثنا الأرض نتبوأ منها حيث نشاء فطيبى نفسا وقرى عينا ، وسيجزى الله الظالمين ، أرحلى الى أى بلد آمن .

وقد اختارت السيدة زينب رضى الله عنها ، مصر دارا لاقامتها لما سمعته عن أهلها وحبهم لأهل البيت النبوى الكريم .

وما كاد خبر رحيل السيدة زينب يبلغ والى مصر اذ ذاك مسلمة بن مخلد الأنصارى ، حتى توجه ومعه جماعة من أصحابه ورهط كبير من أعيان مصر وعلمائها ووجهائها وتجارها ليكونوا فى شرف استقبالها . فاستقبلوها عند قرية على طريق مصر والشام شرقى بلبيس عرفت فيما بعد بقرية العباسة نسبة للعباسة ابنة أحمد بن طولون .

وقد تقدم مسلمة من السيدة زينب وعزاها فى خشوع وخضوع ، وبكى فبكت وبكى الحاضرون ، ثم قالت :

ــ « هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون »

وقد وافق دخول السيدة زينب مصر ، بزوغ هلال شعبان سنة احدى وستين هجرية الموافق ٢٦ ابريل سنة ٦٨١ ميلادية ، وكان قد مضى على استشهاد الحسين رضى الله عنه ستة أشهر وأيام .

وقد أنزلها الوالى هى ومن معها فى داره بالحمراء القصوى ترويحا لها ، اذ كانت تشكو ضعفا من أثر ما مر بها . فنزلت بتلك الدار معززة مكرمة ، وبقيت فيها موضع اجلال المصريين وتقديرهم ، حيث كانوا يفدون الى منزلها الكريم ملتمسين بركتها ودعواتها ، مستمعين الى ما ترويه من الأحاديث النبوية الشريفة والأدب الدينى الرفيع .

وبقيت السيدة زينب بتلك الدار أقل من عام بقليل ، فلم تر خلال مدة اقامتها الا عابدة متبتلة متهجدة صوامة قوامة تالية لآى القرآن المجيد وانتقلت رضوان الله عليها الى الرفيق الأعلى عشية يوم الأحد لأربع عشرة مضين من رجب عام ٦٢ هـ ، فمهدت لها الأرض الطاهرة مرقدا لينا فى مخدعها فى دار مسلمة حيث أقامت وحيث اختارت أن تكون ضجعتها الأخيرة .

ام كلثــوم

كانت السيدة فاطمة الزهراء تعتز اعتزازا كبيرا باسم زينب ، فقــد شاء الله أن تلد رضى الله عنها قبل وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم أنثى أخرى سمتها زينب ، وكناها جدها عليه السلام أم كلثوم ٠

ولما شبت أم كلثوم عن الطوق ، ونما عودها ، سارع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الى خطبتها ، فلما طلبها رضى الله عنه من أبيها على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، قال له :

ـ انها صغيرة ٠

فقال له عمر :

ـ أنكحنيها ياعلى فوالله ما على ظهر الأرض رجل يرصد من حسن صحابتها ما أرصد ٠

فقال له على :

ـ أنا أبعثها اليك فان رضيت فقد زوجتكها ٠

فبعثها اليه ببرد ، وقال لها :

ـ انطلقى بهذا الى أمير المؤمنين ، فقولى أرسلنى أبى يقرئك الســـلام ويقول ان رضيت البرد فأمسكه وان سخطته فرده ٠

فلما أتت عمر قال :

ـ بارك الله فيك وفى أبيك قد رضينا ٠

ورجعت أم كلثوم الى أبيها وقالت :

ـ ما نشر البرد ولا نظر الالى ٠

فقال على :

ـ يابنيتى انه زوجك ٠

وجاء عمر بن الخطاب رضى الله عنه الى مجلس المهاجرين بالروضة ، وكان يجلس فيه المهاجرون الأولون ، فجلس اليهم ، وقال لهم :

ـ رفئونى !

فقالوا :

ـ بماذا يا أمير المؤمنين ؟

قال :

ـ تزوجت أم كلثوم بنت على بن أبى طالب ٠ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« كل نسب وسبب وصهر منقطع يوم القيامة الا نسبى وصهرى » ٠ وكنت قد صحبته فأحببت أن يكون هذا أيضا ٠

سمع المهاجرون هذا من عمر ، فرفئوه • وأصدق أمير المؤمنين أم كلثوم أربعين ألف درهم وفوض على العباس فى تزويج أم كلثوم مـــن عمر رضى الله عنه •

ورزقت أم كلثوم بولد وبنت من عمر بن الخطاب • أما الولد فسـمى « زيدا » وأما البنت فسميت « رقية » •

أما زيد وكان يسمى « ذو الهلالين » فقتل فى حرب كانت فى بنى عدى ليلا ، وكان قد خرج لاصلاح ذات البين بينهم • فضربه خالد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب فى الظلام ولم يعرفه ، فصرع وعاش أياما ومات هو وأمه فى وقت واحد• ولم يعقب ، فلم يدر أيهما مات قبل الآخر ، فلما وضـع للصلاة ، قدم زيدا قبل أمه مما يلى الأمام ، وصلى عليهما عبدالله بن عمر بن الخطاب وسعيد بن العاص أمير الناس •

أما رقية بنت عمر ، فقد تزوجت ابراهيم بن نعيم النحام ، فولدت له جارية • وماتت الجارية وماتت أمها أيضا ، فانقرض ولد أم كلثوم من عمر•

وتوفيت أم كلثوم رضى الله عنها بغوطة دمشق ، عقب محنة أخيها الحسين رضى الله عنه ، ودفنت فى هذه القرية ، ثم تسمت القرية المذكورة باسمها ، وهى الآن المعروفة بقرية الست •

صورة وصفية

وصفت السيدة عائشة رضى الله عنها الزهراء البتول فقالت : « ما رأيت أحدا من خلق الله أشبه حديثا وكلاما برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة . وكانت اذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه ، وكان اذا دخل عليها ، قامت اليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها » .

ولقد تشبعت بالأدب النبوى الكريم ، فكانت تتحرى تقوى الله ، وتتحرج فيما تعتقده من أوامر الدين ، حتى ظنت أن أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء . فقد دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عرقا ، فجاء بلال بالأذان ، فقام ليصلى ، فأخذت بثوبه فقالت :

ـ يا أبة ! ألا تتوضأ ؟

فقال :

ـ مم أتوضأ يا بنية ؟

قالت :

ـ مما مست النار .

قال النبى :

ـ أو ليس أطيب طعامكم ما مست النار ؟

فهى فيما تجهله تتحرج ولا تترخص وتؤثر الشدة مع نفسها على الهوادة معها .

وقد ذكر غير واحد من الصحابة ، وذكرت السيدة عائشة ، أنها كانت أشبه برسول الله في مشيتها وحديثها وكلامها ، وزادت عائشة رضى الله عنها فقالت :

ـ ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها .

كانت الزهراء شديدة الاعتزاز بانتسابها الى أبيها ، وكانت مفطورة على يقين التدين . كان من اعتزازها بالانتساب الى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها ، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم ، فلم يكن أحب اليها من أن يقال لها أن أسباط رسول الله يشبهون رسول الله .

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين ، كان حسبها ما ورثتـــه من الرسول الأعظم وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة ، ولكنها أضافت اليـــه ما ورثته من أمها السيدة خديجة بنت خويلد الذى تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة ، وابنة عم ورقة بن نوفل الذى شغل بالدين فى الجاهليـة حتى فرغ له حياته ٠

نشأت فى بيت رسول كريم ، ورباها نبى عظيم ، بل ولم يزل يتعهـدها بتذكيرها بحق الله ، حتى بعد زواجها ، فقد روى أنه صلى الله عليه وسلم كان اذا خرج الى صلاة الفجر ، يمر ببيت فاطمة الزهراء وينادى :

ـ السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته ٠ الصلاة يرحمكم الله ٠ « انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » ٠

وقد خصت الزهراء البتول من أبيها صلى الله عليه وسلم بأحاديث تدل على أن الرسول الأعظم كان يختصها بمحبته ويؤثرها بمودته ، وأن لهـــا موضعا فى نفسه ، ومكانا من قلبه ٠

عن مجاهد رضى الله عنه ، قال : خرج النبى صلى الله عليه وسلم وهـو آخذ بيد فاطمة ، فقال : « من عرف هذه فقد عرفها ، ومن لم يعرفها ، فهى فاطمة بنت محمد ، وهى بضعة منى ، وهى قلبى ، وروحى التى بين جنبى ، فمن آذاها فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى » ٠

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا كان يوم القيامة جمع اللـــه الأولين والآخرين فى صعيد واحد ثم ينادى مناد من بطنان العرش أن الجليل جل جلاله يقول : نكسوا رءوسكم وغضوا أبصاركم فان فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم تريد أن تمر على الصراط » ٠

وعن أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه قال :

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان ملكا من السماء لم يـــكن زارنى ، فاستأذن ربى فى زيارتى فبشرنى وأخبرنى أن فاطمة ســـيدة نساء أمتى ٠

عن على بن أبى طالب رضى الله عنه : دخل رسول الله صلى الله عليـه وسلم على على وفاطمة ، وأخذ بعضادتى الباب ، وقال : « الســـلام عليكم يا أهل بيت الرحمة وموضع الرسالة ومنزل الملائكة ، يا بنية ان اللـــه

سبحانه وتعالى اطلع على أهل الأرض اطلاعه فاختار أباك فجعله نبيا ، ثم اطلع الثانية فاختار منهم زوجك عليا فجعله لى أخا ووصيا ، ثم اطلع الثالثة فاختارك وأمك فجعلكما سيدتى النساء ، ثم اطلع الرابعة فاختار ابنيك فجعلهما سيدى شباب أهل الجنة • فقال العرش ، أى ربى ، ابنى نبيك ، وابنى وصى نبيك زينى بهما فهما يوم القيامة فى ضفتى العرش بمنزلة الشفتين من الوجه » •

* * *

السيدة فاطمة الزهراء قوية الشخصية ، ثابتة الفؤاد ، عاقلة لبيبة جزلة ، ورثت عن أبيها رسول الله صلى الله عليه وسلم الفصاحة فى القول والقدرة على التعبير والبيان ، وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قالت : « ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسرد كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل ، يحفظه من جلس اليه » • وهو صاحب كلام سليم فى منطق سليم ، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء ما رزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام •

قال الامام أبو الفضل أحمد بن طاهر فى كتاب « بلاغات النساء » : « لما أجمع أبو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — فدك ، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت فى لمة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا حتى دخلت على أبى بكر وهو فى حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنت أنة أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم فى بكائهم فلما أمسكوا عادت فى كلامها فقالت :

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » ، فان تعزوه تجدوه أبى دون نسائكم ، وأخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعا بالرسالة ، مائلا على مدرجة المشركين ، ضاربا لثجنهم (١) آخذا بكظمهم ، يهشم الأصنام وينكث الهام ، حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتفرى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه ، ونطق زعيم الدين وخرست شناشق الشياطين ، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطىء الأقدام تشربون الطرق (٢)•

---

(١) الثجن بسكون الجيم وتحريكها الطريق الوعر •
(٢) الطرق : الماء الذى بالت الابل فيه •

وتقتاتون القد أذلة خاشعين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتي وبعد ما منى ببهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب . (كما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله) .. ونجم قرن للضــلال وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه فى مهواتها فلا ينكفىء حتى يطأ صماخها بأخمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكدودا فى ذات الله قريبا من رسول الله ، سيدا فى أولياء الله ، وأنتم فى بلهنية وادعون آمنون . حتى اذا اختار الله لنبيه فى دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الآفاكين وهدر فنيق (1) . المبطلين فخطر فى عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه ، صارخا بكم ، فوجدكم لدعائه مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافا وأحمشكم فألقاكم غضابا ، فوسمتم غير أبلكم ، وأوردتموها غير شربكم ، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل .

ومضت تقول : « وأنتم الآن تزعمون أن لا أرث لنا ، (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) . أيها المسلمة المهــاجرة أأبتز ارث أبى ؟ أفى الكتاب أن ترث أباك ولا أرث ابى ؟ لقد جئت شـيئا فريا ، فدونكمامخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك ، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون ، ولكل نبأ مســــتقر وسوف تعلمون .

ثم انحرفت الى قبر الرسول صلى الله عليه وسلم وهى تقول :

قد كان بعدك أنبــاء وهنبثة
لو كنت شاهدها لم تكثرالخطب

اذا فقدناك فقد الأرض وابلها
واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

هذه رواية لخطاب فاطمة الزهراء ، وفى الكتاب نفسه رواية أخــرى مخالفة فى لفظها ومعناها للرواية السابقة ، وقبل ايراد الروايتــين قال أبو الفضل :

« ذكرت لأبى الحســـين زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له ان هؤلاء ــ يشير الى

---

(1) الجمل القوى .

قوم فى زمانه يغضون من قدر أهل البيت - يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبى العيناء .

فقال لى : رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن آبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبى عن جدى يبلغ به فاطمة عليها السلام على هـذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبى العيناء ، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفى أنه سمع عبدالله بن الحسن يذكره عن أبيه . ثم قال أبو الحسن : وكيف يذكر هذا من كلام فاطمـة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت ؟ » .

لقد نشأت رضى الله عنها وهى تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء . وانتقلت الى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من امام متفق على بلاغتـه بين محبيه وشانئيه ، وسمعت القرآن يرتل فى الصلوات وفى سائر الاوقات ، وتحـدث النـاس فى زمانهـا بمشابهتها لأبيهـا فى مشـيتها وحديثها وكلامها ، ومنهم من لا يحابيها ولا ينطق فى أمرها عن الهوى .

كانت الزهراء قانعة زاهدة ، فقد التزمت بالحكمة القائلة ان الزاهـد من يحب ما يحب خالقه . ويبغض ما يبغض خالقه ، ويتحرج من حـلال الدنيا ولا يلتفت الى حرامها .

أسند يحيى عن محمد بن قيس قال : « كان النبى صلى الله عليه وسلم اذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث ، فخرج مـرة فى سفر وصنعت فاطمة مسكتين من ورق (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها ، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصحابه على البـاب لا يدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقـد عرف الغضب فى وجهه حتى جلس على المنبر ، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر ، فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به الى رسول الله صلى الله عليـه وسلم ، وقالت للرسول : قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك : اجعل هـذا فى سبيل الله . فلما أتاه قال : قد فعلت ، فداها أبوها - ثلاث مرات - ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد ، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » .

كانت فاطمة البتول ذات ارادة صلبة ، وعزيمة قوية ، وقد بدا ذلك فى محاجتها لزوجها ، ومحاجتها لأبى بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وفيما كان يتوخاه على من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها ٠ وقد يـــكون من دلائل الارادة فى المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام ، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل ، وأنها لا تعجل الى الحديث فيما تعلم فضلا عما تعلم ٠ ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد ، ولم تزد عليه ٠

وقد ماتت الزهراء فى ربيع العمر ٠ فى الثلاثين أو قبل الثلاثين ، فاذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الارادة وهى فى تلك السن الباكرة فذاك ولا ريب دليل على قوة كامنة يرجع اليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين (١) ٠

---

(١) عباس محمود العقاد : فاطمة الزهراء ، ص ٧٣

عاشت الزهراء تنعم بحب الرسول الأعظم ، وكانت دارها بجـــوار دار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال السمهودى فى «أخبار دار المصطفى» : «.. ان بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر ، بينه وبين بيت النبى صلى الله عليه وسلم خوخة ، وكانت فيه كوة الى بيت عائشـة رضى الله عنها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قام اطلع من الكوة الى فاطمة ، فعلم خبرهم ، وأن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى : ان ابنى أمسيا عليلين ، فلو نظرت لنا أدما نستصبح به . فخرج على الى الســـوق فاشترى لهم أدما وجاء به الى فاطمة . فاستصبحت فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل – وذكر كلاما وقع بينهما – فلما أصبحوا ســألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها »

كانت دار الزهراء بجوار دار الرسول ، حتى يستمتع برؤية أحفـــاده بعد أن حرم من الأبناء الذكور .. وفجأة .

شكا أبو الزهراء ، صلى الله عليه وسلم من مرض ألم به ، فى ليال بقين من صفر فى السنة الحادية عشرة للهجرة ، فحسب أهل البيت والمسلمون أنها وعكة طارئة لا تلبث أن تزول ، دون أن يجرؤ أحد على الظن بأنه مرض الموت !

غير أن الزهراء لم تكد تسمع بشكوى أبيها ، حتى خافت ، وأجفلت وكأنما لسعتها نار ! ذلك أنها ذكرت حديثا أسر به صلى الله عليه وسلم اليها منذ أيام ، وكانت قد جاءت لزيارته وهو عند السيدة عائشة رضى الله عنها .

جاءت الزهراء تمشى لا تخطىء مشيتها مشية أبيها رسول الهدى صلى الله عليه وسلم ، وما ان رأت أباها عليه السلام حتى سألته متلهفة عليه :

– ما بك يا رسول الله ؟
– مرحبا بابنتى .
– أبت مالك !؟

فقبلها نبى الرحمة ، ثم أجلسها الى يمينه ، وأسر لها حديثا فبكت ، ثم أسر لها حديثا آخر فضحكت ، وتعجبت عائشة من البكاء فالضــــحك ،

فقالت :
ـ ما رأيت كاليوم فرحا أقرب الى حزن ٠
وقامت الزهراء ، فهرعت اليها السيدة عائشة تسألها :
ـ أخبريني ما سارك ؟٠
ولكن فاطمة أبت أن تكشف وقتئذ عما أسره لها رسول الله فقالت لعائشة :
ـ ما كنت لأفشي على رسول الله صلى الله عليه وسلم سره ٠

ولكن بعد وفاة الرسول ، ذكرت يوما ما أسر به اليها رسول الله ، فقالت انه قال لها :
ـ ان جبريل كان يعارضني القرآن في كل سنة مرة ، وانه عارضني العام مرتين ، وما أراه الا قد حضر أجلي ٠
فبكت الزهراء ٠ فأسر اليها ٠
ـ وأنك أول أهل بيتي لحوقا بي ، ونعم السلف أنالك ٠
وضحكت الزهراء ، فرحا بأنها ستكون أول أهل بيت رسول الله لحوقا به ، ثم عادت فبكت حزنا على أبيها ٠

وأحضرت الزهراء ابنيها الحسن والحسين الى الرسول عليه السلام فقالت له :
ـ يا رسول الله هذان ابناك فورثهما شيئا ٠
فقال الرسول :
ـ أما الحسن فان له هيبتي وسؤددي ، واما الحسين فان له جرأتي وجودي ٠

واشتدت وطأة المرض على الرسول ، وأقامت الزهراء الى جانبه تخدمه وتسهر عليه حانية متجلدة ، تتكلف الصبر ، ولا تكف عن الدعاء ٠
لكن تجلدها خانها حين رأته وقد اشتد به الوجع ، يأخذ الماء بيده ويجعله على رأسه وهو يقول :
ـ واكرباه !
فتبكي الزهراء وتقول بصوت يفيض حزنا ولوعة :
ـ واكربي لكربك يا أبتاه !
فرد عليها وهو يرنو اليها في عطف :
ـ لا كرب على أبيك بعد اليوم !
وحم القضاء ، ولحق الرسول بالرفيق الأعلى ، وترك الزهراء من بعده هيمة حزينة ٠

وبكت ورثته قائلة :

أبتاه ، يا أبتاه .. أبتاه
أجاب ، ربا دعاه .. يا أبتاه
الى جبريل ننعاه .. يا أبتاه
جنة الفردوس .. مأواه .. يا أبتاه
من ربه ما أدناه .. يا أبتاه

وتجهز نعش رسول الله ، ونقل الى قبره الشريف ، وجاء أنس بن مالك يسألها الصبر الجميل ، فقالت له :

– يا أنس ! كيف طابت أنفسكم أن تحثو على رسول الله التراب .

وأسرعت الى قبر الرسول ، وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها ، وبكت وأنشأت تقول :

ماذا على من شم تربة أحمـــد
أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صبت على مصـــائب لو أنهـــا
صبت على الأيام صرن لياليـــا

وبكت ، فبكى الناس لبكائها ، وتقطعت قلوبهم وهم يرونها تفلت التراب من بين أناملها فى حركة يائسة ، ثم تحدق فى يديها الفارغتين ، وتمضى ، كمن فرغت من الدنيا .

وظلت الزهراء حزينة على أبيها ، ما ضحكت بعد وفاته مرة واحـــــدة حتى لحقت به .

* * *

كان أول ما شغل الناس بعد وفاة الرسول ، من الذى يخلف الرســـول عليه السلام ؟

اجتمع المهاجرون والأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يتشاورون .. وكادت الفتنة أن تنشب أظافرها فى المسلمين .. فالخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة تطلب الامارة ، ثم نصح لهم عويم بن ساعده باختيار أبى بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه . ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسموها شطرين : أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين ، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه فى قومه نافرا من البيعة لأبى بكر بعد انعقادها وهو يأبى الا أن يستبد الأنصار بهذا الرأى دون الناس فانه لهم دون الناس » . ثم أصر على ابائه حـــين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال

لهم : « أما والله حتى أرميكم بما في كنانتي من نبل وأخضب سنان رمحي »
وناشدوه أن لا يشق عصا الجماعة فعاد يقول : « انى ضاربكم بسيفي ما ملكته يدى ، مقاتلكم بولدى وأهل بيتي ومن أطاعني من قومي ·· وايم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الانس ما بايعتكم حتى أعرض على ربى » ·

وكان هناك خطر آخر ، هو خطر الفتنة التى راح أبو سفيان يوقد نارها بين علي والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش ، يعد قوما بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها ، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد ، وما كان يستهدف انصاف بنى هاشم ولا أن يؤيد الأنصار ، وانما أراد الوقيعة التى يخذلهم بها جميعا ويخرج منها بالسيادة الأولى التى كانت له على قريش في الجاهلية ·

كان علي بن أبى طالب فى تلك الساعة العصيبة الى جوار الجثمان الطاهر المسجى فى حجرته ، فدخل عليه أبو سفيان وقال :
ـ يا أبا الحسن ، هذا محمد قد مضى الى ربه ، وهذا تراثه لم يخرج عنكم ، فأبسط يدك أبايعك !

وقال عمه العباس :
ـ يا ابن أخى ، هذا شيخ قريش قد أقبل ، فامدد يدك أبايعك ويبايعك معى · فأنا ان بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف ، واذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قرشى ، واذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب ·
أجاب علي :
ـ لا والله يا عم ، انى لأكره أن أبايع من وراء رتاج ·

وما لبث أن دخل أبو ذر الغفارى وبعض انصار علي ، ونقلوا اليه ما كان من أمر بيعة السقيفة ، وقالوا له انه أولى بأمر الخلافة من أبى بكر وأخذوا يعجمون عيدان الرأى ، فانتهوا الى أن يعيدوا النظر فى أمر بيعة السقيفة ·

وقال أبو سفيان :
ـ أما والله انى لأرى عجاجة لا يطفئها الدم · يا لعبد مناف فيم أبو بكر من أمركم ؟ أين المستضعفان (علي والعباس) ؟

واتجه أبو سفيان الى علي قائلا :
ـ ابسط يدك أبايعك · فوالله لو شئت لأملأنها على أبى فصيل (أبى بكر) خيلا ورجلا · ولكن عليا رأى أن فى مقال أبى سفيان نذير تأليب وفتنة ، فقال له :

– طالما غششت الاسلام وأهله ، فما ضررتهم شيئا ، لا حاجة لنـــا الى خيلك ورجلك ٠ انك تريد أمرا لسنا من أصحابه ٠

واتجه أبو سفيان الى العباس ، وقال له :
– انك والله لأحق بميراث ابن أخيك
فرده العباس كما رده على ٠

وأخذ عمر بن الخطاب الزبير بن العوام وعليا بن أبى طالب الى أبى بكر الصديق ، وهناك ثار الحديث من جديد حول بيعة السقيفة ٠ فأبو بكر لم يختره الأنصار الا لأنه من المهاجرين ، وكان رسول الله صلى الله عليـــه وسلم مهاجرا وكان أكبر المهاجرين سنا ٠ وهو الذى اختاره الرسول ليؤم الناس فى الصلاة ، ولكن عليا أصر على أنه أحق بالأمر ، واحتـــج بنفس المنطق وقال :

– أنا أحق بهذا الأمر منكم ، لا أبايعكم وأنتم أولى بالبيعة لى ، أخذتم هذا الأمر من الأنصار ، واحتججتم عليه بالقرابة من رسول الله ، فأعطوكم المقادة وسلموا اليكم الامارة ، وأنا احتج عليكم بمثل احتججتم به على الأنصار ٠

وعاد على ٠٠ وتحدث الى بعض الأنصار والمهاجرين ، ولكنهم رفضـــوا أن ينقضوا بيعة تمت ، ولم يتبعه الا القليل ٠

وعاد على الى داره ، وهو يسبح فى بحار من الفكر ٠٠ وبينما هو كذلك انطلق صوت المؤذن :
الله أكبر الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠٠ أشهد أن لا اله الا الله ٠٠ أشـــهد أن لا اله الا الله ٠٠ أشهد أن محمدا رسول الله ٠٠ أشهد أن محمـــدا رسول الله ٠

واتجه على رضى الله عنه الى الزهراء وقال لها :
– أتحبين أن يزول هذا النداء من الوجود ؟
– لا ٠
– اذن سأبايع أبا بكر ٠٠

وتمت البيعة لأبى بكر ، والتاريخ يسجل أروع صفحات الايمان العميق والاخلاص المجرد ٠

بايع على بن أبى طالب رضى الله عنه أبا بكر الصديق ، وكاد الخـــلاف ينتهى بانطواء الحديث عن الخلافة ، لولا خلاف آخر كان بين السيدة فاطمة الزهراء من ناحية ، وبين أبى بكر من ناحية أخرى حول فدك ٠

وفدك قرية بينها وبين المدينة يومان أو ثلاث ، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين ، فلما قضى رسول الله ، وبويع أبو بكر ، أجمع على منع الزهراء فدك . فأرسلت فاطمة الى أبى بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خيبر ، فقال أبو بكر :

— أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : اننا معشر الأنبياء لا نورث ، ما تركناه صدقة . وانى والله لا أغير شيئا من صدقة رسول الله عن حالها التى كان عليها .

وقد احتجت الزهراء عليه بقوله تعالى عن نبى من أنبيائه — زكريا عليه السلام — « يرثنى ويرث من آل يعقوب » وقوله تعالى : « وورث سليمان داود » .

فقال أبو بكر :

— يا بنت رسول الله . أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يدلى بجوابك ولا أوقعك عن صوابك . ولكن هذا أبو الحسن بينى وبينك هو الذى أخبرنى بما تفقدت ، وأنبأنى بما أخذت وتركت .

وجاء فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد : ان أبا بكر قال : يا ابنة رسول الله ، والله ما ورث أبوك دينارا ولا درهما وأنه قال : ان الأنبياء لا يورثون .

فقالت : ان فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم

قال : فمن يشهد بذلك ؟

فجاء على بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضا ، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن بن عوف فشهدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها .

فقال أبو بكر : صدقت يا ابنة رسول الله ، وصدق على ، وصدقت أم أيمن ، وصدق عمر ، وصدق عبد الرحمن بن عوف ، وذلك أن مالك لأبيك ، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله ، فما تصنعين بها ؟

قالت : أصنع بها كما يصنع أبى !

قال : فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك

قالت : الله لتفعلن .

قال : الله لأفعلن .

قالت : اللهم اشهد .

وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع اليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقى ، وكان عمر كذلك ، ثم كان عثمان كذلك ، ثم كان على كذلك » ٠

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر :

– انطلق بنا الى فاطمة فانا قد أغضبناها ٠ فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما ، فأتيا عليا فكلماه ، فأدخلهما ٠ فلما قعدا عندها حولت وجهها الى الحائط فسلما عليهما فلم ترد عليهما السلام ٠ فتكلم أبو بكر فقال :

– يا حبيبة رسول الله ، والله ان قرابة رسول الله أحب الى من قرابتى ، وانك لأحب الى من عائشة ابنتى ، ولوددت يوم مات أبوك أنى مت ولا أبقى بعده ، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك فى رسول الله ؟ الا أنى سمعت أباك رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لا نورث ٠ ما تركنا فهو صدقة ٠

فقالت : أرأيتكما ان حدثتكما حديثا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به ؟

قالا : نعم ٠

فقالت : نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول : رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى ؟

قالا : نعم ، سمعناه من رسول الله ٠

قالت : فانى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى ، ولئن لقيت النبى لأشكونكما اليه ٠

فقال أبو بكر : أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة ٠

ثم انتحب يبكى حتى كادت نفسه تزهق ٠٠ ثم خرج فأجتمع اليه الناس فقال لهم :

– يبيت كل رجل منكم معانقا حليلته مسرورا بأهله وتركتمونى وما أنا فيه ؟ لا حاجة لى فى بيعتكم ، أقيلونى بيعتى ٠

ورفض المسلمون أن يقيلوا أبا بكر من البيعة خشية الفتنة ٠

والذى يهمنا من قضية فدك ، أنها تدل بما لا يدع مجالا للشك على أن الزهراء رضى الله عنها كانت حينما تؤمن بحق ٠ تتمسك به ، ولا تفرط فيه ٠٠ وهذا خلق لا يتوافر الا فيمن كانت لها الشخصية القوية ، والارادة الصلبة ، والعزيمة المتينة ، والايمان العميق ٠

وفاتهـا

حزنت الزهراء حزنا شديدا على فراق الرسول ٠ حتى روى أنهـــا لم تبتسم بعد وفاته ، وزادها الحزن نحولا على نحـــول ، وضعفا على ضعف ، فخذلت جوارحها ومشى اليها الموت وهى ما تزال فى ميعة الصبا ، وربيـــع العمـر ٠

وشعرت رضى الله عنها ، بقرب نهاية الأجل ، وانتقالها الى الرفيق الأعلى ٠٠ فنادت بنيها فعانقتهم وقبلتهم وملأت عينيها منهم ٠ ثم دعت اليها أسماء بنت عميس فقالت لها :

ـ يا أمه ، أسكبى لى غسلا ٠

واغتسلت الزهراء كأحسن ما كانت تغتسل ، ثم قالت لها :

ـ يا أمه ائتينى بثيابى الجـدد ٠

وجاءتها أسماء بثيابها الجدد ، فلبستها ، ثم قالت لها :
ـ قد اغتسلت فلا يكشفن لى أحد كتفا ، أتستطيعين أن توارينى بشىء ؟

فأجابتهـا :
ـ انى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ، ويشدون النعش بقـوائم السرير فعمل لهـــا نعشها قبل وفاتها ، ونظرت اليه وقالت :
ـ سترتمونى ستركم الله ٠

وتبسمت رضى الله عنها ، ولم تر مبتسمة بعد وفاة أبيها الا ساعتها ٠

وأغمضت عينيها ، ونامت ، وانتقلت من الدار الفانية الى الدار الباقية ٠

وكانت وفاتها ـ على أرجح الأقوال ـ ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان من العام الحـــادى عشر للهجرة (٢٢ نوفمبر ٦٣٢ ميلادية) ودفنت بالبقيع ليلا حسب وصايتها اذ أنه صلى الله عليه وسلم كان قد دفن ليلا أيضـــا ، وصلى عليها على بن أبى طالب والفضل بن العباس ٠

وحزن المسلمون على وفاتها ٠ يقول ابن عباس :

« لما علمت المدينة بوفاة السيدة فاطمة الزهـراء ، ارتجت بالبكاء من

الرجال والنساء ودهش الناس كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم » .

أما علي رضى الله عنه فقد حزن عليها حزنا لازمه منذ وفاتها ، فقد عاد بعد دفنها الى البيت ، فاستوحشه ، وجزع لفقدها ، ثم أخذ يقول :

أرى علل الدنيا على كثيرة
وصاحبها حتى الممات عليل

لكل اجتماع من خليلين فرقة
وكل الذى دون الفراق قليل

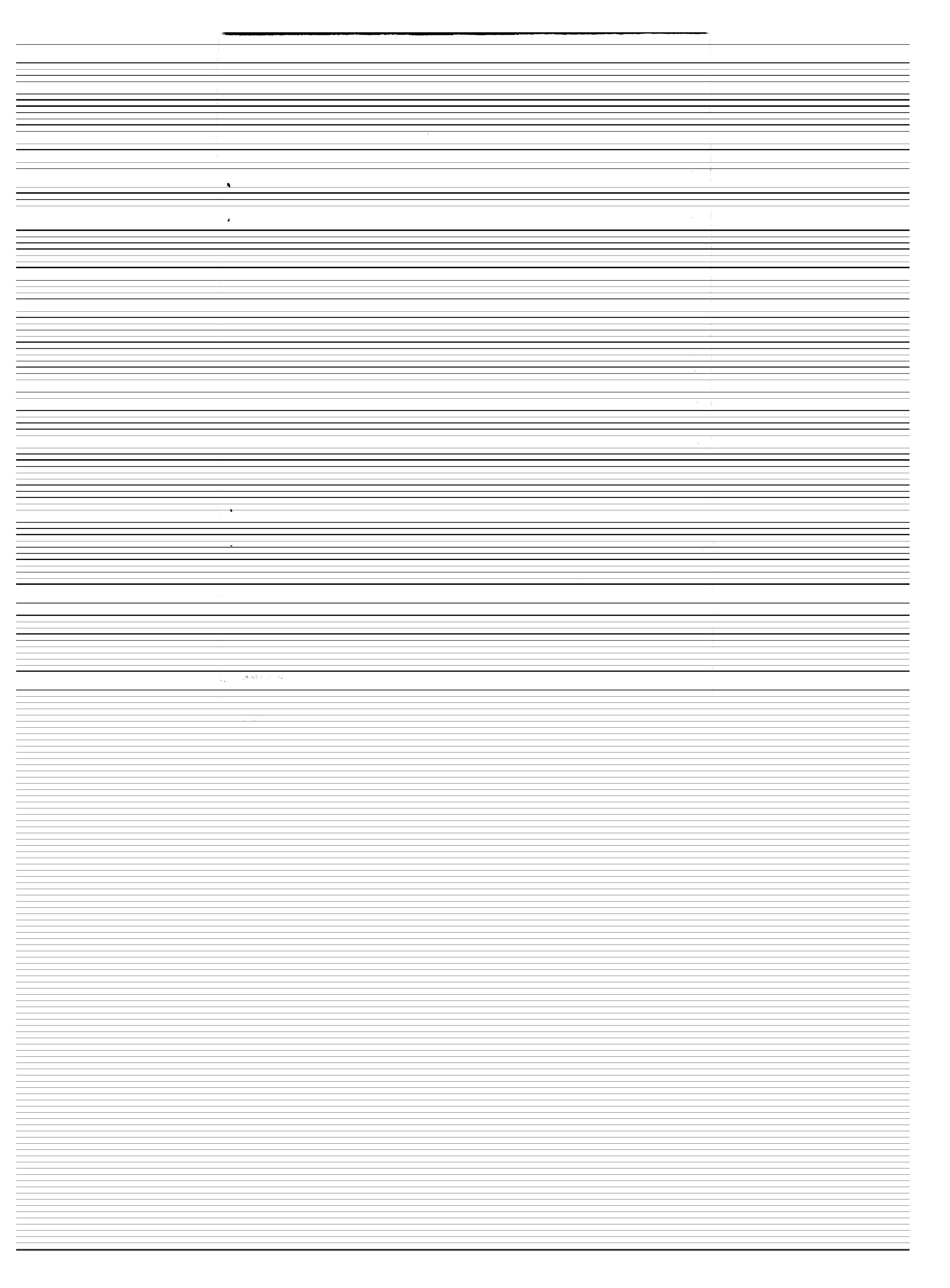
وان افتقادى فاطمة بعد أحمد
دليل على أن لا يدوم خليل

. . .

وقد طويت آخر صفحة من تاريخ حياة فاطمة الزهراء ولكن ظلت شخصيتها مقدسة عند المسلمين ، فهى فضلا عن أنها بضعة الرسول الأعظم وحبيبته وريحانته ، فهى أيضا الصورة المثالية للأم الفاضلة ، والسيدة الكاملة .

السيدة نفيسة

رضى الله عنهـــا



مولدها ونشأتها

الشريفة الطاهرة ، البضعة الناضرة ، والزهرة الزاهرة ، سليلة النبوة ، وفرع الرسالة ، كريمة العنصر والمنبت ، زكية المغرس والمحتد ، نفيسة بنت الحسن الأنور ابن زيد الأبلج ابن الحسن السبط ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ·

قال ابن عباس رضى الله عنهما قال النبى صلى الله عليه وسلم :
« خلق الناس من أشجار شتى ، وخلقت أنا وعلى بن أبى طالب من شجرة واحدة · فما قولكم فى شجرة أنا أصلها ، وفاطمة فرعها ، وعلى لقاحها ، والحسن والحسين ثمارها ، وشيعتنا أوراقها · فمن تعلق بغصن من أغصانها ساقه الى الجنة ، ومن تركها هوى الى النار »

أبوها الحسن الأنور ، شيخ بنى هاشم فى زمانه ، واليه انتهت الرياسة على بنى الحسن فى زمنه ، كان اماما ، وعالما جليلا ، من كبار أهل البيت ، ومن سروات العلويين وأشرافهم وأجوادهم ولى المدينة من قبل الخليفة العباسى ، أبى جعفر المنصور خمس سنوات · ثم حبسه فى بغداد خوفا منه لدسيسة ألقيت فى أذنه كانت كاذبة خاطئة وما زال فى حبسه حتى مات المنصور فأخرجه ابنه وخليفته المهدى وأكرمه وأعاده الى منصبه ورد له ما كان قد صادر أبوه من أمواله وممتلكاته ·

ولما ولى الحسن المدينة للمرة الثانية كان بها رجل فقير يقال له « ابن أبى ذئب » فقربه الحسن وأحسن اليه ، وما زال يرعاه حتى صلحت حاله ، وكثر ماله ، ثم قربه الحسن الى المنصور ، فلما أصبحت له حظوة عند الخليفة شرع يتكلم فى حق الحسن ، وينم عليه ويدس له ، حتى قال للمنصور عنه : انه يطمع للخلافة ! فاستقدمه المنصور وحبسه ·

ولما عاد الحسن الى منصبه فى ولاية المدينة معززا مكرما منعما عليه بالجزيل من الأموال ، ظن ذلك الرجل « ابن أبى ذئب » أن الحسن منتقم منه ، لكن الحسن كان أسمى خلقا ، فقد أخذه بالعفو والاحسان ، فلم يخاطبه فيما قدمت يداه ، ولا عاتبه ، بل أرسل اليه بهدية عظيمة ، فكان آية فى مكارمه وعلو شمائله ·
ومن كريم خلقه ، انه أتى بشاب مخمور ، أثناء ولايته للمدينة ، فقال له الشاب :

ـ يا ابن رسول الله لا أعود · وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أقيلوا ذوى الهيئات عثراتهم · وأنا ابن أبى أسامة بن سهل بن حنيف · وقد كان أبى مع أبيك كما علمت ·

فقـــال :

ـ صدقت ، هل أنت عائد ؟

قـــال :

ـ لا واللـه ·

فأقاله وأمر له بخمسين دينارا ، وقال له تزوج بها · فتـاب الشـــاب وحسنت سيرته ، فوالاه الحسن بالاحسان ·

وقد قصده الشعراء والمادحون بقصائدهم لكرمه وغزير علمه ، فما خيب لأحد منهم فيـه أملا ·

وكان جم التواضع · دخل عليه أحد الشعراء وأنشده : « الله فرد وابن زيد فرد » فغضب وقال : هلا قلت : « الله فرد وابن زيد عبد ؟ » ونزل عن سريره وألصق خده بالأرض ·

فعل هذا أسوة بالرسول الأعظم · كان اذا عظمه أحد أصحابه أو وفوده مرغ خده فى التراب ·

وكان رضى الله عنه تقيا صالحا مجاب الدعوة ، ختم حياته بأحسن خاتمة، حيث مات وهو فى طريقه الى الحج · ولما كان موته قريبا من مكة فقد نقل اليها ودفن بهـا ·

أما أمها ، فأم ولد ، وليس ذلك بضائرها ، ولا ما ينقص من قدرها ، فقديما تسرى أبو الأنبياء ابراهيم عليه الصلاة والسلام هاجر فولدت له اسماعيل عليه السلام ، فكان من نسله رسول الهدى محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ·

وكان أبوها الحسن من أم ولد ، وكذلك زيد بن على رضى الله عنهما ، من أم ولد · وقد دخل على هشام بن عبد الملك ، فقال له :

ـ بلغنى أنك تحدث نفسك بالخلافة ، ولا تصلح لهـا لأنك ابن أمة ·

فقال له : أما قولك انى أحدث نفسى بالخلافة ، فلا يعلم الغيب الا الله ، وأما قولك أنى ابن أمة ، فاسماعيل ابن أمة أخرج الله من صلبه ، خـير

البشر محمدا صلى الله عليه وسلم ، واسحق ابن حرة ، أخرج من صلبه القردة والخنازير ·

فقال له : قم · فقال : اذا لا تراني الا حيث تكره · فلما خرج من الدار قال : ما أحب أحد الحياة الا ذل · فقال سالم مولى هاشم : بالله لايسمعن هذا الكلام منك أحد ·

وكان زيد رضى الله عنه ، من أحسن بنى هاشم عبادة · قال أبو حنيفة :
ـ شاهدت زيد بن على كما شاهدت أهله فما رأيت فى زمانه أفقه منه ولا أعلم ، ولا أسرع جوابا ولا أبين قولا ، لقد كان منقطع القرين ، وكان يدعى بحليف القرآن ·

فلا شية فى أن تكون السيدة الشريفة نفيسة رضى الله عنها من أم ولد ، فان لها من آبائها الكرامة والجلالة ، وهى فرع شجرة الرسالة ، وعضو من أعضاء الرسول ، وبضعة من الامام والبتول ، وهى السيدة العفيفة ، الطاهرة العابدة ·

استهل نورها ، وظهر ضياؤها ، بولادتها بمكة المكرمة فى يوم الأربعاء الحادى عشر من شهر ربيع الأول سنة خمس وأربعين ومائة من الهجرة · وما ان بدت اشراقتها حتى فرحت بها أمها ، واستبشر بها ابوها ، فقد عقد اليمن بناصيتها ، وامتزج الخير بأنفاسها ، فانطلقت ألسنة الأسرة بحمد الله على هذه النعمة الجليلة التى أنعم بها عليهم ورزقهم اياها ·

نشأت رضى الله عنها · نشأة نبوية ، فانها بعد أن درجت بمكة ، تحوطها العزة والكرامة ، استصحبها أبوها ، وقد أوفت الخامسة من عمرها ، الى المدينة المنورة ، وعاشت معه بداره ، وهو الأطم الذى كان قد ابتاعه فهدمه ، وبناه قصرا ، سمى بالحمراء ·

وقد أخذ أبوها يلقنها ما تحتاج اليه من أمور دينها ، ودنياها · وكانت تذهب الى المسجد النبوى تسمع من شيوخه ، وتتلقن الحديث والفقه من علمائه ، وقد سمعت من الامام مالك بن أنس موطأه ·

حكى الحافظ أبو عبد الله بن برعش فى كتابه « تحفة الأشراف » أن الامام زيد الأبلج رضى الله عنه جد السيدة نفيسة كان يأخذ بيد ولده الحسن الأنور والد السيدة نفيسة ويدخل الى قبر جده المصطفى عليه الصلاة والسلام ويقول :
ـ يا سيدى يا رسول الله ، هذا ولدى الحسن أنا عنه راض ·

ثم يرجع وينصرف ، فلمـــا كان فى بعض الليـــالى ، نام زيد فرأى الرسول صلى الله عليه وسلم • وهو يقول له :

– يا زيد • انى راض عن ولدك الحسن برضاك عنه • والحق ســبحانه وتعالى راض عنه برضاى عنه •

فلمـا ولى الحسن المدينة ، كان يذهب الى قبر جده رسول الله صـلى الله عليه وسلم ويأخذ بيد ابنته نفيسة ، وهما بداخل المقـــام الشريف ويقـــول :

– يا سيدى يا رسول الله • انى راض عن ابنتى نفيسة • ويرجـــع فما زال يفعل هذا حتى رأى الرسول صلى الله عليه وسلم فى المنام وهو يقـــول له :

– يا حسن أنا راض عن ابنتك نفيسة برضاك عنها • والحق سبحانه وتعالى راض عنها برضاى عنها •

زوجها

بلغت السيدة نفيسة الخامسة عشرة من عمرها ، فرغب فيها شباب آل البيت النبوى من بنى الحسن ، وبنى الحسين رضى الله عنهم ، كما تهافت على خطبتها الكثير من شباب اشراف قريش لما عرفوه من خيرها وبرها ودينها وصلاحها وما نشأت عليه من عبادة ربها ، واقبالها ، على طلب العلم . فكان أبوها يأبى عليهم ، اجابة طلبهم ، ويردهم ردا جميلا .

ثم جاء السيد اسحق المؤتمن بن جعفر الصادق ، يخطبها من أبيها ، فصمت ولم يرد عليه جوابا .

فقام اسحق من عنده ودخل الحجرة النبوية الشريفة وقال بعد السلام :

ـ يا رسول الله انى خطبت نفيسة بنت الحسن من أبيها ، فلم يرد على جوابا وأننى لم أخطبها الا لخيرها ودينها وعبادتها . ثم خرج من الحجرة الشريفة .

فرأى والدها النبى صلى الله عليه وسلم تلك الليلة فى المنام فقال له :

ـ « يا حسن زوج نفيسة لاسحق المؤتمن » .

فعقد له عليها فى يوم الجمعة الخامس من شهر رجب سنة ١٦١ هـ .

واسحق هو بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين رضى الله عنهم .

وكان اسحق من أهل الفضل والاجتهاد والورع والصلاح ، روى عنه الحديث ، وكان ابن كاسب بن يعقوب اذا حدث عنه يقول : « حدثنى الثقة الرضى اسحق بن جعفر » . وقد أخذ اسحق كثيرا من أبيه جعفر الصادق الذى كان اماما نبيلا ، وعالما جليلا ، أخذ الحديث عن أبيه وجده وعين واليا على المدينة من قبل العباسيين بعد ذلك بزمن .

وكان جعفر ، أبو اسحق ، ثقة لا يسأل عن مثله ، روى عنه الكثير من أفاضل الرواة قال ابن أبى حازم : كنت عند جعفر الصادق يوما واذا بسفيان الثورى على الباب فقال : ائذن له . فدخل ، وقال له جعفر

ـ يا سفيان · انك رجل يطلبك السلطان فى بعض الأحيان ، وتحضر عنده · وأنا أتقى السلطان · فاخرج عنى غير مطرود ·

فقال له سفيان : حدثنى حديثا أسمعه منك وأقوم ·

فقال : اليك هذا الحديث ·

« حدثنى أبى عن جدى عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : من أنعم الله عليه نعمة فليحمد الله ، ومن استبطأ الرزق فليستغفر الله ، ومن حزبه أمر فليقل لا حول ولا قوة الا بالله ·

ثم قال : خذها يا سفيان · ثلاثا وأى ثلاث ! فانصرف سفيان بما نال ·

وكان جعفر رجلا شجاعا مهيب الجانب · راجح العقل ، متقد الذهن · كثير المناقب والكرامات · وكان مجاب الدعوة اذا سأل الله شيئا لا يكاد يتم قوله الا وهو بين يديه ·

ذاك هو اسحق المؤتمن أخذ عن أبيه جعفر الصادق كثيرا من علومه وآدابه وأخلاقه حتى أصبح له شأنه ومقامه ·

كان لهذا الزواج السعيد الموفق أثره فى مجرى حياة هذه السيدة الشريفة ، فقد كان متجاوبا مع ما نشأت عليه من حب لله ، وانصراف الى طاعة الجليل جل جلاله ·

وبزواج اسحق المؤتمن من السيدة نفيسة أجتمع فى بيتها نوران : نور الحسن ونور الحسين رضى الله عنهما ·

وقد ولدت منه السيدة نفيسة أبا القاسم وأم كلثوم ولم يعقبا ·

مكث اسحق المؤتمن بعد وفاة السيدة نفيسة رضى الله عنهـا زمنا ليس بالكثير ، ثم توفى ودفن بالمدينة المنورة ·

في رحاب خليل الرحمن

قالت زينب بنت يحيى المتوج : « ان عمتى نفيسة كانت تقـرأ القرآن وتبكى وتقول :
« الهى وسيدى يسر لى زيارة خليلك ابراهيم عليه السلام » ·

كانت تتطلع الى زيارة هذا النبى العظيم ، والرسول الكريم ، الذى كان مثلا رائعا فى قوة العقيدة وجلال التضحية ، وروعة الايمان ·

شاء الله اختبار يقينه وايمانه ذلك الاختبار الدقيق ، فأمره بذبح ولده اسماعيل ، فصدع بأمر ربه ، ونجح فيما امتحن فيه نجاحا باهرا ·

ولما مات أسكن الله روحه السماء السابعة ، كما جاء فى قصـة الاسراء والمعراج على حين أسكن غيره من الأنبياء والمرسلين السابقين سـموات أدنى ·

وأمر الله تعالى ابراهيم واسماعيل ببناء الكعبة فيبنيانها ، ويأمره أن يؤذن فى الناس بالحج فيفعل ويدوى صوته فى الآفاق ولا يزال يدوى ··

وهو أبو الأنبياء أنه أبو أبيها محمد بن عبد الله رسول الله ، وأن له بشارة به قال الرسول صلى الله عليه وسلم : أنا دعوة ابراهيم عليـه السلام حيث يقول : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتـلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم انك أنت العزيز الحكيم ·

وفى حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام :
« أنا دعوة ابراهيم ، وبشرى عيسى ، ورؤيا أمى آمنة » ·

ورحلت الى الشام لزيارة ابراهيم عليه الصلاة والسلام · قالت السيدة نفيسة رضى الله عنها :
« ما ان بلغت المقام الكبير والضريح العظيم حتى أجهشت بالبكاء · بكاء السرور لتحقيق أمنيتى فى زيارة الخليل ثم جلست فى خشوع أقرأ من آيات الله ما ورد فى خليل الرحمن ·

ولما كانت قراءتى فى تدبر وتفكر وخشوع وخضوع ، أحسست حينئذ

احساسا يقرب من المادية ، أن الخليـل أمامى ، وحينئذ خفق قلبى ، وخشع بصرى وقلت :

« يا جدى الأكبر • جئت اليك بجسدى وروحى ، وقد جاءت روحى من قبلى • فهل أحظى برضاك ، وصالح دعاك ، وتوجيهاتك الشريفة لى ، حتى أتعبد لآخر لحظة فى حياتى •

وحينئذ سمعت صوتا مجلجلا يقول :

ـ يا ابنتى يا نفيسة أبشرى فانك من الصالحات القانتات • وانك باذن الله موفقة • الا أننى أوصيك بأن تقرئى سورة المزمل وتتدبرى معناها • وستعلمين طرق العبادة التى لا مشقة فيها لأن الله لا يكلف نفسا الا وسعها • وأنت يا ابنتى تتعبدين الى درجة الارهاق ، الذى يضنى جسدك • ومع ذلك تتحاملين على نفسك وتغرقين فى العبادة •

يا ابنتى : اقرئى قول الله تعالى لرسوله الكريم « **ان ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك** •• الى آخر سورة المزمل(١) » • وقد جعل الله العبادة فى الليـل اختيارية بعد أن كانت اجبارية لأن الله يعلم أن من عباده من يجاهد فى سبيل الله ويسعى لنيـل رزقه ولابد له من الراحة ليقوم بعمله هذا • والجهاد عبادة والسعى فى سبيل الرزق عبادة • وادارة شئون المنزل للسيدات عبادة •

أذكرى ذلك وارحمى نفسك • واعطيها قسطا من الراحة • لتقـوى على العبادة من غير ارهاق مؤلم • واعلمى أنك موفقة • وأنك مباركة وأنك فى الصف الأول بين الصالحين والصالحات • وكونى فى جميع خطواتك القدوة الصالحة لغيرك ليقتدى بك من أراد الله له الخير والسعادة •

وحينئذ قلت : يا جدى العظيم ، فقال : أستغفر الله •

قلت : يا جدى الأكبر • سأنفذ هذه التوجيهات • وأرجو من روحك الطاهرة أن تهب روحى صفاء حتى أبلغ ما أتمناه لنفسى من القربى الى الله • حتى ألقاه وهو عنى راض • وهذه هى أمنيتى التى لا أمنية بعدها •

فقال : يا ابنتى أبشرى فان الله قد استجاب دعواتك • ولن أنســاك حتى نلتقى فى عالم الروح • فى عالم الخالدين ثم بين يدى الله رب العالمين، يوم تجزى كل نفس ما عملت ، والعاقبة للمتقين(٢) •

---

١ ـ تقول السيدة نفيسة رضى الله عنها ان جميع الأنبياء والمرســلين قد وهبهم الله حفظ كتابه المبين بقدرته وباللغة التى نزل بهــا وهى العربية • وهذا اختصاص للأنبياء فى برزخهم •

٢ ـ محمد شاهين حمزة : السيدة نفيسة ، ص ٥٥ ـ ٦٢ •

صورة وصفية

كانت السيدة نفيسة رضى الله عنها ، من السائحات ، العابدات ، نشأت في النسك ، والاخلاص لربها ، تصوم النهار ، وتقوم الليل ٠ باعت نفسها لله ، ووقفت حياتها ولذاذاتها على نهوضها بطاعة الله ٠

قالت زينب بنت يحيى المتوج : خدمت عمتى نفيسة أربعين سنة،فما رأيتها نامت الليل ، ولا أفطرت بالنهار ،فقلت لها :

ـ أما ترفقين بنفسك ياعمتى ؟

فأجابتنى :

ـ كيف أرفق ، وان أمامى لعقبات لا يقتحمها الا الفائزون الصـــابرون المصابرون ؟

وكانت وهى بالمدينـــة المنورة لا تفارق حـرم جدها المصطفى عليـــه الصلاة والسلام قارئة ، ذاكرة باكية ، راكعة ساجدة ، ضارعة داعيـة ٠ وقد حجت الى بيت الله الحرام ، ثلاثين حجة ، أكثرها مشيا على الاقدام ، تحببا فى طاعة الله ، وتقربا اليه حتى تظفر منه بالجزاء الأوفى ٠

وكانت ـ عليها رضوان الله ـ تجزئها الوجبة : الأكلة الواحدة فى اليوم والليلة ، بل ربما أجزأتها زمنا أطول من يومها وليلتها ٠

قالت زينب بنت يحيى المتوج : كانت عمتى نفيسة تأكل فى كل ثلاثة أيام أكلة واحدة ، وكانت لها سلة معلقة ، أمام مصلاها ، فكانت كلما اشتهت شيئا وجدته فى السلة وكنت أجد عندها ما لايخطر بخاطرى ، ولاأعلم من أين يأتى فعجبت من ذلك ، فقالت :

يازينب من استقام مع الله تعالى ، كان الكون بيده وفى استطاعته ٠

كانت رضى الله عنها ، كريمة الخلق ، شريفة الطبع ، غراء المكرمات ، فقد صاغها الله من معدن كريم ، وأنبتها نباتا حسنا ، فجمعت خلال الفتوة والمروءة ، فكانت معطاءة فياحة ، فياضة نفاحة جمة الميزات كثيرة الصلات، وهى مع هذا زاهدة متقشفة ، قد مالت عن زخارف الحياة ٠

وهب لها أحد الأمراء ، مائة ألف درهم وقال : خذى هذا المال شكرا لله تعالى ٠ لتوبتى ٠ فأخذته ٠ وصرته صررا بين يديها وفرقت الصرر عن آخرها وكان عندها بعض النساء ، فقالت لها : يا سيدتى ٠ لو تركت لنا شيئا من هذه الدراهم لنشترى به شيئا فنفطر عليه ؟ !

فقالت لها : خذى غزلا غزلته بيدى فبيعيه بما نشترى به طعاما نفطر عليـــه ٠

فذهبت المرأة وباعت الغزل وجاءت بما أفطرت به هى واياها ٠ ولم تأخذ من المال شيئا فهى الجوادة الكريمة ، وهى من قوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ٠ نشأت زاهدة فى الدنيا ٠ لم تمل بها زخارف الحياة الدنيا ٠ وما كانت تلتفت وأبوها أمير المدينة له قصوره ، وحدائقه وماله الى شيء من أولئك ٠ بل مالت بطبعها منذ صغرها الى حياة البعد عن بهرج الحياة وزينتها مقبلة على أخراها ، فالدنيا الى نفاد ٠ وما عندالله باق ٠

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« يا أبا هريرة : ألا أريك الدنيا جميعها ، قلت : نعم فأخذ بيدى الى مزبلة فيها رؤوس أناس وعذرات وخرق وعظام ٠ ثم قال عليه السلام : يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل آمالكم ٠ ثم هى اليوم عظام بلا جلد ثم ستصير رمادا ٠ وهذه العذرات ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبوها ثم قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتجافونها ٠ وهذه الخرق البالية كانت رياشهم وثيابهم ٠ فأصبحت الرياح تصفقهـــا ٠ وهذه العظام عظام دوابهم التى كانوا ينتجعون عليها أطراف البلاد ٠ فمن كان باكيا على الدنيا فليبك » ٠

وقال صلى الله عليه وسلم : « اذا أراد الله بعبده خيرا زهده فى الدنيا ورغبه فى الآخرة »

كانت السيدة نفيسة زاهدة ، وكان أمامها فى طريق الزهد هو الرسول الأعظم الذى أحاطت بسيرته ، وكان مرشدها هو ما قاله الرسول وما فعل ٠

كان الهدى النبوى هو نبراسها الذى تستضىء به ٠

كان هجرها للدنيا واقعا على كل ما يعوقها عن الله وطاعته ومرضاته ، ويعوقها عن العمل لآخرتها والتزود لها ٠

كانت الآخرة وكان الموت نصب عينيها ، حسبنا دليلا على ذلك حفرها قبرها بيديها وقضاؤها فيه شطرا من وقتها كل يوم تستلهم منه العظات ، وتستوحى الصالحات ٠ ثم هى بعد ذلك زوجة ، وأم ، ترعى الله فى زوجهـــا ، وفى ولديها ٠

وهى محبة للعلم والمعرفة ، تأخذ منهما بحظها وتعطى منهما ما تشاء ، ولمن يشـــاء ٠

كانت السيدة نفيسة رضى الله عنها تستهدف أنهاض الانسان ، وازدهار الحيـــاة ٠

كانت رضى الله عنها حريصة الحرص كله ألا تأكل الا مع زوجها ، برا به وحفاظا على رضاه مؤمنة بأن رضا الزوج من رضا الله ، وكثيرا ما كانت تردد دعاء مأثورا عنها ، هو قولها – « الهى وسيدى ومولاى ، متعنى وأسعدنى برضاك عنى ، ولا تسبب لى سببا يحجبك عنى » •

وأكثر ما تقول هذا الدعاء ، وهى متعلقة بأستار الكعبة • طوافة حول البيت العتيق ، تقوله وهى تنشج باكية ، هكذا كان دعاؤك الصـــادر من صميم فؤادها ، الشاكر لأنعم ربها ، الهادف الى دوام رضا المولى عليها المستعيذ برحمته أن تمتحن بالحجاب عنه ، لأن محنة الحجاب ، هى أشد ألوان العذاب على الأحباب •

كانت صبورة فى عبادتها ، قوية النفس فى نسكها ، وصيامها وقيامها ، فانها لما احتضرت وهى صائمة ، ألحوا عليها بأن تفطر ، فقالت :

– واعجباه اننى منذ ثلاثين سنة ، وأنا أسأل الله عز وجل أن ألقـاه ، وأنا صائمة أفأفطر الآن ، هذا ما لايكون • ثم أخذت فى قراءة سورة الأنعام ، فلما وصلت الى قوله تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم » لفظت نفسها ، وأدركتها وفاتها •

كانت رضى الله عنها نبيلة النفس ، محمودة الشمائل ، أريحية الطبع ، يتمثل كرم الخلق فى منطقها وأفعالها ، وكأن أخلاقها سبكت من الذهب المصفى ، وكأنما شمائلها أنقى من الندى •

وتلقب السيدة نفيسة بكريمة الدارين ، لعوارفها ، وصنائعها وشفاعتها يوم القيامة لقاصديها ، وبجناح الرحمة لتواضعها • وخضوعها لله جل جلاله، وشفقتها ورحمتها وبرها وصلتها لذويها وقاصديها ، ويستظل زائرها بجناح رحمتهـا •

وبنفيسة العلم لما استنبطته من دخائل العلم ، واستجلته من غوامضه ، وما آثرته على طالبى الاستفادة منها ، فكان يرجع اليها فى المشكلات ، ويستصبح بضوئها فى المعضلات ، وتشد اليها الرحال من كل مكان ، فى طلب ما حذقته وأحكمته ، من علوم بيت النبوة • فرضى الله عنها ، فهى من تلك الســلالة الزكية ، والأسرة المحمدية ، التى ورثت العلم والحكمة ، ذلك فضـل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم •

رحلة السيدة نفيسة الى مصر

أحب الشعب المصرى السيدة نفيسة رضى الله عنها قبل قدومها اليه فى عام ٩١٣ هـ حينما سمع بأنبائها وهى بالمدينة المنورة وتشوق اليها ، فلما قدمت استقبلها استقبالا رائعا وأقامت فى دار كبير تجار مصر جمال الدين بن عبدالله بن الجصاص ، وأقامت بها أشهرا ، والناس يفدون اليها زرافات ووحدانا من جميع الآفاق ، يلتمسون بركتها ويرجون دعاءها ، ويرون فى اشراقتها اشراقة بيت النبوة وعترة المصطفى صلى الله عليه وسلم ٠

ثم انتقلت من هذه الدار الى دار أم هانىء ثم انتقلت الى دار أبو السرايا أيوب بن صابر ، فجاء الناس اليها ، واشتد الاقبال عليها والتزاحم عـلى بابها حتى عاقها ذلك عما فرضت على نفسها من أوراد وعبادات ٠ فاعتزمت أن تغادر مصر الى المدينة المنورة ، لتقضى بقية عمرها فى هدوئها وعبادتها ، ومناجاة ربها ، وتلتزم حرم جدها المصطفى عليه الصلاة والسلام فاشتد ذلك على الشعب ، وشق عليه أن تفارقه ، وقد لمس نفحاتها ، وعرف تقواها ، وما أفاضه الله تعالى عليها من فيوضات ، وما يحيطه بهـا من تجليـات ومشاهدات ٠ فالتمس منها العدول عن عزمها ، والبقاء فى مصر ٠ فأبت ، ففزع الى والى مصر السرى بن الحكم يشفعه لديها لترضى ٠ فبعث هذا رسولا وكتابا فأصرت ٠ فجاء اليها بنفسه راجيا ملحا باسم الشعب ٠ فقالت له :

ـ انى كنت قد اعتزمت المقام فى مصر ٠ غير انى امرأة ضعيفة ٠ وقـد تكاثر الناس حولى ٠ وأكثروا من زيارتى ٠ فشغلونى عن أورادى ٠ وجمع زادى لمعادى ٠ الى أن منزلى هذا يضيق بهذا الجمع الكثيف ٠ والعـــدد الكثير ، وقد زاد حنينى الى روضة جدى المصطفى صلى الله عليه وسلم ٠

فقال لها السرى :

ـ يابنت رسول الله ٠ انى كفيل بازالة ما تشكين منه ٠ وعلى أن أمهد لك السبيل ٠ وأهيىء لك ما فيه راحتك ، ورضاك ٠ أما ضيق المنزل ، فان لى دارا واسعة بدرب السباع وانى أشهد الله تعالى أنى قد وهبتها لك ، وأسألك أن تقبليها منى ، ولا تخجلينى بردها على ٠

قالت السيدة نفيسة :

ـ انى قد قبلتها منك ٠ ثم قالت :

ـ ماذا أصنع بهذه الجموع الكثيرة والوفود الغفيرة ؟

أجاب السرى :

ـ تتفقين معهم على يومين فقط كل أسبوع ، فيهما يكـــون التلاقى ، وليكونا السبت والأربعاء . وتتفرغين فى الأيام الباقية لمولاك . فقبلت .

وشاع هذا القبول فشاع السرور والفرح فى الناس . وبقيت وطاب لها المقام فى مصر وسماها الشعب « نفيسة المصرية » حبا لها ، وتقـــديرا لشخصها الكريم .

وفاتهـا

أقامت السيدة نفيسة رضى الله عنها في دارها ، عابدة ، سائحة تقية نقية ، حتى آذنت شمها بالمغيب ، وتنتقل من دار الفناء الى دار البقاء .

قالت زينب بنت يحيى المتوج : تألمت عمتى فى أول يوم من رجب (سنة ٢٠٨ هـ) وكتبت الى زوجها اسحق المؤتمن كتابا ، وكان غائبا بالمدينة تطلب اليه فيه المجيء اليها وموافاتها . لاحساسها بدنو أجلها ، وفراقها لدنياها . واقبالها على أخراها . وما زالت متوعكة الى أن كان أول جمعة من شهر رمضان . فزاد عليها الألم وهى صائمة ، فدخل عليها حذاق الأطباء فأشاروا عليها بالافطار لحفظ قوتها ولتتغلب على مرضها فرفضت ثم أنشدت تقول :

اصرفوا عنى طبيبى ودعونى وحبيبى
زاد بى شوقى اليه وغرامى فى لهيب
طاب هتكى فى هواه بين واش ورقيب
لا أبالى بفوات حيث قد صار نصيبى
ليس من لام بعذل عنه فيه بمصيب
جسدى راض بسقمى وجفونى بنحيبى

فانصرف الأطباء ، وهم معجبون بقوة يقينها ، وثبات دينها ، وسألوها الدعاء فقالت خيرا ودعت لهم .

وشاءت السيدة الكريمة أن تختم حياتها بالقرآن الكريم ، واستفتحت بسورة الأنعام حتى اذا بلغت قوله تعالى : « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بماكانوا يعملون » غشى عليها .

تقول زينب بنت أخيها : فضممتها الى صدرى ، فتشهدت شهادة الحق ، وصعدت روحها الى باريها فى السماء .

وبكى الناس ، وسمع النحيب فى كل دار .

ووصل زوجها اسحق المؤتمن فى اليوم نفسه ، ليجدها قد انتقلت الى رحاب الله وليقول لهم : انه يريد أن ينقلها الى المدينة المنورة لتدفن فى البقيـع ٠

وحزن الناس حزنا شديدا ، وهرعت جموعهم الى دار الأمير واستجاروا به يريدون أن يتدخل بنفوذه لدى اسحق أن يدفنها فى مصر ، وأن يرجـع عن عزمه ونقلها الى المدينة وبخاصة أنها حفرت قبرها بيدها فى دارها ٠ فسأله الأمير فى ذلك وقال له :

ـ بالله لا تحرمنا مشاهدة قبرها ٠ فانا كنا اذا نزل بنا أمر جئنا اليها فى دارها نسألها الدعاء ، فما ننتهى من دعائها الا وقد كشف الله عنـا ما نزل بنا ٠ فدعها لتكون فى أرضنا ، فاذا نزل بنا أمر جئنا الى قبرها ، فسألنا الله تعالى عنده ٠

فأصر اسحق على نقلها ولم يرض ما طلبه القوم وما عرضـه الوالى ٠ فجمعوا له مالا وفيرا أوسقوا به بعيره الذى قدم به من المدينة ، وسألوه أن يقبل هذا المال ويعدل عما يريد ، فأبى المال واستنكره ، وأبى العدول عن عزمه ، فتركوا المال وانصرفوا ٠

فلما أصبح الصباح ذهبوا اليه ليجددوا له الرجاء ، فوجدوه على غـير ما تركوه بالأمس ٠ قال لهم انى رأيت رسول الله صلى الله عليـه وسلم فى نومى فقال لى : رد عليهم أموالهم وأدفنها عندهم ولا تعارض أهـل مصر فيها ٠

وكان يوم دفنها يوما مشهودا : ازدحم فيه الناس ازدحاما شديدا ، كلهم يريد أن يشترك فى الصلاة عليها وتشييع جنازتها ٠ وأديت الصـلاة فى مشهد حافل جليل ، لم ير له مثيل ، ودفنت فى قبرها الذى حفرته بيدها ٠

كرامات السيدة نفيسة في حياتها

الكرامة أمر خارق للعادة يظهره الله على يد عبد صالح من عباده اكراما له ، دون أن يكون للعبد سلطان في هذا الأمر · أى أن الله تعالى قد يجرى الكرامة على يديه دون قصد ولا ارادة منه ·

وتكلم الناس في الفرق بين الكرامات والمعجزات ·
يقول الامام أبو اسحق الاسفرايني :

المعجزات دلالات صدق الأنبياء ، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي · كما أن العقل المحكم لما كان دليلا للعالم في كونه عالما لم يوجد فيمن لايكون عالما ·

وقال القاضي أبو بكر الأشعري :
ان المعجزات تختص بالأنبياء ، والكرامات تكون للأولياء كما تكون للأنبياء ولا تكون للأولياء معجزة ، لأن من شرط المعجزة اقتران دعوة النبوة بها · والمعجزة لم تكن معجزة لعينها · وانما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة ، فمتى اختل شرط من تلك الشرائط لا تكون معجزة · وأحد تلك الشرائط ، دعوى النبوة والولى لا يدعى النبوة · فالذى يظهر عليه لا يكون معجزة ·

ويقول المناوى في مقدمة الطبقات :

« وهى جائزة بل واقعة حسبما نطق به النص القرآنى والحديث النبوى، أما القرآن فلقصة أهل الكهف حيث أقاموا فيه ثلثمائة سنة وأزيد نياما أحياء بلا آفة ولا غذاء وليسوا بأنبياء باجماع الفرق · وقصة مريم حيث حملت بلا ذكر ووجد الرزق عندها بلا سبب ، وتساقط عليها الرطب من شجرة يابسة بلا موجب ·

وقصة واصف بن برخيا حيث أحضر عرش بلقيس من مسافة بعيدة في طرفة عين ·

وأما السنة فحديث جريج الراهب الذى كلمه الطفل الرضيع كما في الصحيحين ، وحديث أصحاب الغار الذى انطبق عليهم الصخر ، وحديث البقرة التى ركبها صاحبها فالتفت اليه وكلمته ·

ومن حوادث الصحابة صيحة عمر – يا سارية الجبل · واضاءة السوط كالمصباح لأسيد بن حضير في ليلة مظلمة » ·

ومن الكرامات التى رويت عن السيدة نفيسة ، لتبين مدى الرعاية التى شملها الله عز وجل بها .. ما يلى : —

● عن سعيد بن الحسن . قال :
توقف النيل فى زمن السيدة نفيسة رضى الله عنها فقلق الناس وجاءوا الى السيدة نفيسة يسألونها الدعاء . فلبت ودعت وأعطتهم قناعهـا فجاءوا به الى النهر وطرحوه فيه . فما رجعوا . حتى زخر النيل بمائه وزاد زيادة عظيمة .

● طلب حاكم ظالم انسانا فى أمر تافه ، ليعذبه ، فجاء الرجل الى السيدة نفيسة واستجار بها فدعت له أن ينجيه الله من ظلم ذلك الحاكم وقالت له : « امض اليه فقد حجب الله تعالى عنك نظر الظالمين » . فذهب وأدخل عليه وأوقف أمامه مع الواقفين . فلم يره فسأل عنه أعوانه : أين فلان ؟
فقالوا : ها هو انه واقف بين يديك .
فقال : مالى لا أراه ؟ انى والله لا أراه .
فقالوا له : انه مر بالسيدة نفيسة ، فاستجار بها وسألها الدعاء ، فدعت له بخلاصه من الظالمين .
قال الحاكم : وهل بلغ من ظلمى أن يحجب الله عنى المظلوم بالدعاء ؟ يارب انى تبت اليك . فلما تاب . وكان مخلصا فى توبته رأى الرجل واقفا أمامه مع الواقفين . فقربه وأكرمه وتصدق على الفقراء والمساكين . وبعث الى السيدة نفيسة بمبلغ كبير فقسمته صررا ووزعتها عن أخرها على المحتاجين .
● تزوج رجل من أهل المغافر بامرأة ذمية فجاء منها بولد . فأسر فى بلاد العدو . فأخذت المرأة تبحث عنه فى كل مكان حتى أعياها الأمر وقصدت البيع تسأل عن الأسرى وابنها بينهم فيهـا دون نتيجـة حتى يئست .
وأخيرا قالت لزوجها :
— بلغنى أن بين أظهرنا امرأة صالحة مجابة الدعاء . يقال لها نفيسة بنت الحسن . اذهب اليها . فلعلها تدعو لولدنا فيعود الينا فقـد برح بنا غيابه الطويل . فان جاء آمنت بدينها .
فجاء الرجل الى السيدة نفيسة وقص عليها القصة فدعت له أن يرد الله عليه ولده . وعاد الرجل الى بيته .
فلما كان الليل اذ بالباب يطرق فخرجت المرأة فاذا بابنها على الباب . وبعد أن فرح الجميع بعودة الغائب . سألته أمه عن أمره فجعل يحدثهـا

وأباه عن أمره وكيف عاد ٠ فقال : كنت واقفا يا أماه على باب المعتقل في الوقت الفلاني (وهو الوقت الذى دعت فيه السيدة نفيسة) وأنا في خدمتي ٠ فلم أشعر الا ويد وقعت على القيد وسمعت من يقول اطلقوه فقد شفعت فيه السيدة نفيسة بنت الحسن ٠ فأطلقت من الغل ثم لم أشعر بنفسي الا وأنا على رأس محلتنا هذه فسرت حتى وقفت على الباب وطرقته فخرجت أنت ٠

وشاعت هذه الكرامة في الحي فأسلمت المرأة وأسلم معها عدد كبير من أهل الحي وصارت المرأة من خدام السيدة نفيسة اعترافا بفضلها ٠

● خرجت أمتها جوهرة في ليلة ذات مطر غزير لتأتي سيدتها نفيسة بماء للوضوء فأخذت تخوض في ماء المطر المنهمر في ذهابها وايابها وعادت دون أن تبتل لها قدم ٠

● كان لامرأة عجوز أربع بنات وكن جميعا يتقوتن من غزلهن تجمع أمهن غزلهن في أسبوع وتمضي به الى السوق وتبيعه ثم تشتري بنصف الثمن الذى حصلت عليه كتانا وبالنصف الثاني ما يكفيهن من الطعام أسبوعا ٠

وحدث في يوم من الأيام أن أخذت الأم غزل بناتها وخرجت من دارها الى السوق في يوم جمعة كعادتها في كل أسبوع ، وبينما هي في طريقها والغزل فوق رأسها ملفوفا في قماش أحمر انقض طائر فجأة على رزمة الغزل واختطفها وارتفع ، ووقعت المرأة على الأرض مشدوهة وغشي عليها ٠ فلما أفاقت بكت على غزلها الذى ضاع وأخذت تتساءل وهي تذرف دموعها ماذا تفعل بأيتامها وبم تطعمهن أسبوعا ؟ واستمع الناس الذين تجمعوا حولها الى قصتها المحزنة ، وأشار عليها بعضهم أن تذهب الى السيدة نفيسة وتسألها الدعاء أن يفرج عنها ما نزل بها من كرب عسى الله أن يزيل عنها ما بها ببركة ايمانها فمضت اليها وقصت عليها قصتها باكية ٠ فأشفقت عليها السيدة نفيسة ورحمتها ، وقالت :

« يا من علا فقدر وملك فقهر ، أجبر من أمتك هذه ما انكسر ٠ فانهن خلقك وعيالك » ٠

دعت لها بهذا الدعاء وطلبت اليها أن تبقى فان الله على كل شيء قدير ، فقعدت المرأة وفي قلبها من جوع بناتها التهاب ٠

وبعد قليل ٠٠ أقبل جماعة يطرقون باب السيدة نفيسة ويستأذنون في الدخول فأذنت لهم فدخلوا وتحدثوا اليها وقالوا ان لهم أمرا عجبا ٠ وقالوا : نحن من التجار كنا مسافرين في سفينة فلما قربنا من بلدكم

اصطدمت سفينتنا بصخرة وانفتحت وأخذ الماء يتسرب من هذه الفتحة ونحن نحاول سدها فلا تنسد • فاستغثنا بالله تعالى ، وذكرنا • وتوسلنا بك اليه أن ينقذنا من هذا البلاء الذى حم • فاذا بطائر يطير فوقنا ويلقى علينا خرقة بها غزل • فوضعناها فى المكان المنفتح فانسد باذن الله تعالى وبركتك وسلمنا وقد جئنا بخمسمائة درهم فضة هدية شكرا لله تعالى فبكت السيدة نفيسة وقالت :

ـ « الهى ما أرأفك وألطفك بعبادك فلك الحمد الجميل والشكر الجزيل » •

ثم نادت العجوز وقالت لها :

ـ بكم تبيعين غزلك كل أسبوع ؟

فقالت :

ـ فقالت :

ـ بعشرين درهما •

فقالت لها :

ـ أبشرى فان الله تعالى عوضك عن كل درهم خمسة وعشرين درهما •

وقصت عليها قصة التجار والسفينة والغزل ودفعت لها ذلك المبلغ • فخرجت العجوز باكية من شدة الفرح وهرولت الى أولادها • تخبرهم بما حدث • وكيف رد الله عليها غزلها ببركة السيدة نفيسة رضى الله عنها •

● كان فى جوار السيدة نفيسة يهودى له ابنة مقعدة •

فقالت لها أمها ذات يوم : انى ذاهبة الى الحمام ، ولا أدرى ما أصنع بك فهل لك أن نحملك معنا ؟

أجابت : لا •

قالت : هل تقيمين فى البيت وحدك ؟

قالت البنت : لا ، ولكن احملينى يا أماه عند هذه الشريفة التى فى جوارنا • حتى تعودى • فدخلت اليهودية على السيدة نفيسة واستأذنتها فى المجىء بابنتها الى دارها فأذنت • فجاءت بها ووضعتها فى جانب من البيت ومضت •

وحان وقت صلاة الظهر فاحضرت السيدة نفيسة ماء وتوضأت ، فجرى من مائها شىء الى جانب الصبية المقعدة فجعلت تبل يدها منه وتمر على أعضائها فزال عنها ما كان بها باذن الله وهبت تمشى على رجليها وكأنه لم يكن بها شىء • فلما جاءت أمها خرجت اليها ما شية فسألتها فأخبرتها بما حدث فعجبت وأسلمت وأسلمت معها أسرتها وأسلم من علم بالقصة من حيها •

نفيسة العلم والمعرفة

السيدة نفيسة رضى الله عنها من أهل بيت زقوا العلم زقا ، وهى عالمة غير معلمة ، وفهمة غير مفهمة ، فمادة علمهـا مما منح وفتح به على رجالات بيتها الرفيع وأفيض عليها الهاما ٠

وكان لها مكانة مكينة بين الأئمة وأساطين المجتهدين ٠ ومما يثبت ما لهـا من اجلال واكبار فى قلوبهم ، ما روى أن بشر بن الحارث ـ وكان من جلة علماء عصره ، زاهدا ورعا جمع فى صدره بين علمى الشريعة والحقيقة ـ وكان من زوارها وقد مرض وعادته السيدة نفيسة ، وبينما هى عنده فى أثناء عيادته اذ دخل الامام أحمد بن حنبل ليعوده ـ ولمـا عرف من بشر أن هذه السيدة هى نفيسة بنت الحسن أحسن تحيتها ، وطلب من بشر أن يسألها لهما صالح الدعوات وكان هذا الطلب دليـلا على علمه بمقامهـا الروحى العظيم ، وبدعائها المستجاب ٠

فقـال لها بشر :

ـ أيتا السيدة الجليلة المقبولة الدعوة ٠ انا نسـألك جميعا خالص الدعـاء ٠

فقـالت :

ـ اللهم ان بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النار فأجرهما يا أرحم الراحمين ٠ وبعد أن دعت لهما دعاءها ، طلبت اليهما أن يدعوا لها فوافقا ، وتقول السيدة نفيسة رضى الله عنها :

« لقد نعمت بمعرفة الأخ فى الله الامام أحمد بن حنبل حينما كان عند صديقه بشر بن الحارث ، وهو على جانب عظيم من العلم والمعرفة وعلو القدر عند الله وقد استجبت لطلبهما ودعوتلهما ، كما طلبت اليهمـا أن يدعوا لى فكان ذلك ٠ والله خير مجيب ٠

وكان من زوارها الامام الشافعى ، وكانت دارها بالنسبة له ـ بمثـابة الواحة الوارفة وسط صحراء جرداء ٠ وقد اعتاد أن يزورها وهو فى طريقه الى حلقات درسه فى مسجد الفسطاط ، وفى طريق عودته الى داره ٠ وفى غير ذلك من الأوقات ٠

وكان يسمع منها الحديث النبوى الشريف ٠ ويصلى التراويح فى شهر رمضان فى مسجدها ٠ وكثيرا ما كان يسألها الدعاء ٠ وكان اذا مرض بعث اليها بأحد أصحابه كالربيع الجيزى أو الربيع المرادى فيقول لها :

– ان ابن عمك الشافعي مريض ويسألك الدعاء ٠

فترفع بطرفها الى السماء ٠ وتدعو له ٠ فلا يرجع رسوله الا وقد عوفي الشافعي من مرضه ٠

فلما مرض مرضه الأخير الذى مات فيه أرسل اليها على جارى عادته ، ملتمسا منها الدعاء فقالت للقاصد :

– متعه الله بالنظر الى وجهه الكريم ٠

فلما عاد الناصر سأله الشافعي عما فعل فنقل اليه ما قالت ٠ فعلم أنه ميت ٠ وأخذ يوصى ٠ ثم أوصى أن تصلى هى عليه فى رحاب بيتها ٠

فلما توفى جاءوا به الى بيتها تنفيذا لوصيته ، بعد أن صلى عليه أبو يعقوب البويطى أحد أصحابه صلاة الجنازة مع المشيعين ٠ فصلت هى عليه مرة أخرى مع لفيف من السيدات الصالحات ٠ وقد بارك الرسول صلى الله عليه وسلم هاتين الصلاتين اللتين لم يسبق لهما مثيل فيما مضى ٠

وروى أحد الصالحين ممن حضر صلاة جنازة الشافعي ، قال عقب أداء الصلاتين :

ان الله تعالى غفر لكل من صلى على الشافعي بالشافعي ، وغفر للشافعي بصلاة السيدة نفيسة رضى الله عنها عليه ٠

وقد أثنت رضى الله عنها على الشافعي فقالت : « يرحم الله الشافعي ، انه كان يحسن الوضوء » ، وهذه على ايجازها شهادة عالية جامعة ، تحتوى طى كلماتها القصار المعانى الرائعة لأن الوضوء أساس العبادة ، واذا كان الأساس حسنا فان كل ما يبنى عليه حسن ٠ فكأن لسان حال هذه الشهادة الموجزة البليغة يقول : ان الشافعي رضى الله عنه ، كان حسن الاجتهاد ٠

وقد زارها فى حياتها أكابر العلماء ٠٠ عثمان بن سعيد المصرى الملقب بورش ، وذو النون المصرى وعبد الله بن الحكم ، وعبد الرحمن بن عبد الله، وأبو موسى يونس بن الأعلى الصدفى وأبو على الروزبارى ، وأبو الحسن الدينورى ، وأبو بكر أحمد بن نصر الدقاق ، وبنان بن أحمد الواسطى ، وشقران بن عبد الله المغربى ٠٠٠ وغيرهم من الأكابر ٠

يقول الامام الشعرانى فى لطائف المنن يصف احدى زياراته لها :

وقد دخلت عليها مرة فوقفت على باب مشهدها تادبا ، ودخل أصحابى الى قبرها ٠ فلما نمت جاءتنى وعلى رأسها مئزر صوف أبيض وقالت لى : أنا نفيسة ٠ اذا جئت للزيارة فادخل الى قبرى ، فقد أذنت لك ٠ فمن ذلك اليوم أدخل لزيارتها وأجلس تجاه قبرها ٠

الحياة البرزخية

الانسان جسد وروح.. فاذا فارقت الروح الجسد ، بدأت حياة البرزخ (١).
وحياة البرزخ ليست امتدادا لحياة الدنيا ، فهى مغايرة لها ، وليست على شاكلتها والا كان الانتقال اليها عبثا وتكرارا ، فضلا عن أن الواقع المشاهد يؤيد تلك المغايرة ، فما رجع أحد من الحياة البرزخية الى الدنيا حتى يكون شاهد صدق على أنها امتداد دنيوى .

وهى أيضا ليست الحياة الأخروية ، لأن الحياة الأخروية لها ميقات وأشراط وعلامات ما زالت فى علم الله تعالى .

فالحياة البرزخية اذن حياة بين حياتين :

حياة فيها حياة . تحلل فيها الميت من ظلامه وطينيته ودخل منطقة الروح والحق والنور ، فرأى فيها ما حجب عنه فى الدنيا وأبصر ما غط عليه ، وعلم فيها ومنها ما كان وسيكون ، .

« **فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد** » .

ورأى منها مكانه فى العالم الأخروى ومكانته يوم القيامة . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « ان أحدكم اذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشى ان كان من أهل الجنة ، فمن أهل الجنة ، وان كان من أهل النار فيقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة » .

فى الحياة البرزخية صديقون وشهداء أحياء فى قبورهم ، وفيها جاحدون كافرون معذبون فى رمسهم .
وفيها رسل الله من ملائكة ، وأنبياء يعيشون فى أجوائها ، يسمعون ويرون ويحسون ويشعرون .

يقول الامام الشعرانى فى كتابه « الجواهر والدرر » :
« ان أرواح الأنبياء وأرواح الكمل باقية على الخدمة فى جنة البرزخ ،

---

١ — البرزخ فى اللغة : الحاجز بين الشيئين . والوقت الذى بين الموت والبعث . والبرزخ الحاجز الفاصل الذى يمنع الشىء من أن يختلط بغيره . قال الله تعالى : « **بينهما برزخ لا يبغيان** » . أى حاجز يمنع البحرين من أن يختلط أحدهما بالآخر .

لكن خدمتها هناك دون خدمتها فى دار الدنيا ، وذلك لأن البرزخ له وجه واحد الى طلب التكليف وهو الذى الى الدنيا ، أما الوجه الآخر فهو الى الآخـــرة ولا تكليف هناك » ·

ويقول ابن القيم :
« والأرواح بعد المفارقة تلحق بأشكالهـــا واخوانها وأصحاب عملها ، ولها بعد المفارقة صحة ومرض ، ولذة ونعيم ، وألم أعظم مما كان لها حـــال اتصالها بالبدن بكثير » ·

ويقول أيضا ابن القيم :
لقد تظاهرت الأدلة من القرآن ، والسنة ، والآثار ، والاعتبار ، والعقل ، والقول ، ان الروح ذات قائمة ، تصعد وتنزل ، وتتصل وتنفصل وتخـــرج وتذهب وتجيء ، وتتحرك وتسكن ، وعلى هذا القول أكثر من مائة دليل ·

ويقول عبد الكريم الجيلي :
اذا كانت الأرواح فى الدنيا على الخير كانت مطلقة على الخير فى البرزخ · وان كانت فى الدنيا على الشر كانت مطلقة على الشر فيه ·

ويقول الامام الرازى فى تفسيره :
ان الأرواح البشرية الخالية من العلائق الجسمانية ، المشتاقة الى الاتصال بالعالم العلوى بعد خروجها من ظلمة الأجساد ، تذهب الى عالم المــلائكة ، ومنازل القدس ، ويظهر منها آثار فى أحوال هذا العالم · فهن المدبرات أمرا ، أليس الانسان قد يرى أستاذه فى المنام ويسأله عن مشكلة فيرشده الى حلهـــا ·

عن ابن عباس قال : ضرب رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فاذا هو قبر انسان يقـــرأ سورة « الملك » حتى ختمها ·
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هى المـــانعة ، هى المنجية تنجيـــه من عذاب القبر · (رواه الترمذى وقال : حديث حسن غريب) ·
والأرواح تتآلف وتتعارف ·
وأرواح الأموات تتلاقى بأرواح الأحياء ، والواقع المنامى ودنيا الرؤى والأحلام تثبت ذلك اللقاء الروحى وتؤيده ·
وأرواح الأموات تتقارب وتتعارف بأرواح الأموات ، يدل على ذلك ما ورد فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى رواه ابن أبى الدنيا ، قال :

لما مات بشر بن البراء بن معرور حزنت عليه أم بشر حزنا شديدا ، فقالت : يا رسول الله ، انه لا يزال الهالك يهلك من بنى سلمة ، فهل يتعارف الموتى فأرسل الى ولدى بشر بالسلام ؟

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، والذى نفسى بيده يا أم بشر انهم ليتعارفون كما تتعارف الطير فى رءوس الشجر ٠

فكان لا يهلك هالك من بنى سلمة الا جاءته أم بشر عقيب وفاته فقالت :
ـ يا فلان عليك السلام ، اقرأ على بشر السلام ٠

وقال عبيد بن عمير : ان أهل القبور يتوكفون (يتتبعون) الأخبار ، فاذا أتاهم الميت قالوا : ما فعل فلان ؟

فيقول : ألم يأتكم ؟ أما قدم عليكم ٠

فيقولون : لا ٠

فيقول : انا لله وانا اليه راجعون ، سلك به غير سبيلنا ٠

وعن أبى أيوب الأنصارى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ان نفس المؤمن اذا قبضت تلقاها أهل الرحمة عند الله كما يتلقى البشير فى الدنيا ، فيقول : أنظروا أخاكم حتى يستريح ، فانه كان فى كرب شديد ٠ فيسألونه : ماذا فعل فلان ؟ وماذا فعلت فلانة ؟ فاذا سألوه عن رجل مات قبله قال : انه قد مات قبلى ٠

قالوا : انا لله وانا اليه راجعون ذهب به الى أمه الهاوية فبئست الأم وبئست المربية ٠

يقول الشيخ محمد حسنين مخلوف : ان الروح تبقى فى البرزخ حية مدركة، تسمع وتبصر وتسبح سبحا فى ملك الله حيث أراد الله وقدر ، وتتصل بالأرواح الأخرى ، وتأنس بها وتناجيها ، سواء أكانت أرواح أحياء أم أرواح أموات ٠

وقال أيضا :

قد تواترت الروايات الصحيحة والرؤى من أصناف بنى آدم على فعل الأرواح بعد موتها ، وأنها تقرأ القرآن وتصلى وتخبر أرواح الأحياء عند لقائها ، وتقضى حوائج الناس ، وأنها تقدر على ما لا تقدر على مثله حال اتصالها بالبدن فى الدنيا من هزيمة الجيوش الكبيرة بالعدد القليل ، متمثلة ، وغير متمثلة ٠ وظاهر ان هذا هو لبعض الأرواح التى يؤذن لها بذلك ٠

يقول الأستاذ الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية الأسبق :
« ان ما يظهر من التصرفات على يد الأولياء لا يخالف صريح القرآن ، لأن هذا التصرف الذى ينسب للأولياء هو نوع من الكرامات وهو فعل الله

وخلقه ، يظهره الله اكراما لهم تارة بالهام ، وتارة بمنام وتارة بدعائهم وتارة بفعلهم واختيارهم وتارة بغير اختيار ولا قصد ولا شعور منهم ، بل قد يحصل من الصبي المميز ، وتارة بالتوسل الى الله تعالى بهم في حياتهم وبعد مماتهم مما هو محكي في القدرة الالهية . ولا يقصد الناس بسؤالهم ذلك قبل الموت وبعده نسبتهم الى الخلق والايجاد والاستقلال بالأفعال ، فان هذا لا يقصده مسلم ولا يخطر ببال أحد من العوام فضلا عن غيرهم .

وقال : وليس هذا التوسل ممنوعا أصلا ، لما علمت مما تقدم ، من أن المتوسل بالولي انما يطلب من الله اجابة طلبه اكراما لهذا الولي لاعتقاده أن هذا الولي أقرب منه الى الله تعالى ، وهذا لا فرق فيه بين الحي والميت لما تقدم من أن الفاعل هو الله تعالى ، بل انه بعد الموت أقرب منه حال الحياة الدنيوية ، لأن الروح بعد الممات غير مشغولة بتدبير شئون البدن .

وقال : وكما جاز أن يتوسط حي في قضاء مصلحة حي أو ميت ، والفعل لله وحده ، يجوز أو يتوسط روح ميت في قضاء مصلحة حي أو ميت والفعل لله وحده . والأرواح باقية على الحياة وأفعالها في عالم الملك انما تظهر بواسطة البدن بالحياة الحيوانية فاذا مات وفقد الحياة الحيوانية بقيت نفسه وروحه على حياتها الملكوتية وتعلقت بجسمه تعلقا آخر على وجه آخر يعلمه الله تعالى كما دل عليه نعيم القبر وعذابه ، فاذا كان الفعل في الواقع ونفس الأمر انما هو للنفس والروح والجسم آلة يظهر بها الفعل والروح باقية خالدة . ففعلها باق وتصرفها في أفعالها لا يتغير الا بعدم ظهور الأفعال بواسطة البدن . فلا مانع عقلا أن يكون بعض أرواح الأولياء والصالحين بعد موت الأجساد سببا بدعائها وتوجهها الى الله تعالى في قضاء حوائج بعض الزائرين لهم المتوسلين بهم بدون أن يكون لها مدخل في التأثير — وأي فرق بين التوسط بالأحياء في قضاء الحوائج مع الاعتقاد أن لا فاعل أي لا خالق للفعل غير الله وبين توسط أرواح الأموات في اعتقاد ذلك ؟

والقول بأن ملوك الدنيا انما يحتاجون الى الوسائط لجواز الغفلة عليهم عن حوائج الناس بخلاف العليم الخبير ، سفسطة ظاهرة ، وتمويه على العقول ، فان الملك ووسائطه واسطة في قضاء حوائج الطالب من الله تعالى أي لا فاعل سواه ، فلو كان اتخاذ الواسطة شركا بعد اعتقاد أن المؤثر هو الله تعالى وحده لكانت معاونة بعضنا بعضا في قضاء المصالح شركا — وهذا باطل بالضرورة لما يترتب عليه من بطلان الشرائع وفساد نظام العالم وعدم نسبة الأفعال الاختيارية الى فاعليها فتبطل الحدود والزواجر ويختل النظام .

قال المناوى فى شرح عينية ابن سينا فى النفس . قال الناظم فى كتاب زيارة القبور : تعلق النفس بالبدن عظيم جدا حتى أنها بعد المفارقة تشتاق وتلتفت الى الأجزاء البدنية المدفونة ، فاذا زار انسان قبر انسان آخر وتغاضى عن العلائق الجسمانية والعلائق الطبيعية توجهت نفسه الى العالم العقلى فتواجه نفسه نفس الميت وتحصل منها المقابلة كما فى المرآتين فيرتسم فيهما صورة عقلية بطريقة الانعكاس ويحصل لهما بذلك كمال .

ان زيارة القبور تارة يقصد بها الموعظة بالأموات وهذه تعم جميع القبور والأموات . وتارة يقصد بها الاستمداد والتبرك بالمزور . وهذا يختص بالأنبياء والأولياء والصالحين .

ان الانسان يتأثر بتصوراته وأن نفسه تحت قهر سلطان الوهم ؟ فكم من انسان تحقق أن سيقتل لا محالة فتصور الموت واقعا به فمات بسبب ذلك قبل أن يقتل ـ كذلك اذا زار الانسان مشهد الحسين رضى الله تعالى عنه واعتقد أنه بمكان طاهر بين يدى ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم استولى عليه الخشوع والخضوع وامتلأ قلبه اخلاصا فيدعو الله مخلصا موقنا بالاجابة خصوصا اذا اعتقد أن روح الحسين رضى الله عنه تسأل الله تعالى اجابة دعاء زائره . أليس ذلك سببا فى اجابة الدعاء وقضاء حوائج الزائرين المخلصين والله هو المؤثر .

ولا نرى مسلما ولو عاميا يتوهم فضلا عن أن يعتقد لله شريكا فى خلقه ، فمهما اعتقد الزائر أن المزور أطهر منه روحا وأصفى نفسا بما أعطاه الله تعالى من الكمال الانسانى وان كان العوام لا يستطيعون التعبير عما تكنه صدورهم من حسن العقيدة وكمال الايمان .

كرامات السيدة نفيسة بعد وفاتها

السيدة نفيسة رضى الله عنها تفيض فى برزخها ، كما كانت تفيض فى الحياة الدنيا حيوية ومحبة ، ومن علاها تمد يدها ، وتهدى علمها · وتبث ايماءاتها للأحباء بالعمل الصالح والاقبال على طاعة الله جل جلاله ·

ولها رضى الله تعالى عنها كرامات لا حصر لها ، هى آية على اكرام الله تعالى اياها ، وعلى ما خص الله به آل البيت النبوى الكريم من كرامات وأسبغ عليهم من نفحات وفيوضات ·

● كان بمصر رجل يقال له : عفان بن سليمان المصرى ، وجد فى داره مالا مدفونا ، فتصدق منه على الفقراء والمساكين والأيامى واليتامى وأبناء السبيل · وكان لا ينام حتى يطعم خمسمائة بيت منهم · ويتلقى الحجاج من العقبة ، ويحمل المنقطع منهم · واشترى من وزير مصر ـ أحمد بن سهل ـ ألف حمل برا ، ثم حصل غلاء شديد ، بلغ فيه ثمن البر ثلاثة أمثال الثمن الذى اشتراه به ، فأراد الوزير أن يشتريه منه بالثمن الحاضر ، فأبى · وقال : انما أدخر ثمنه عند الله تعالى ، وفرقه على الفقراء والمساكين · فتغيظ منه تكين أمير مصر ، وكان جبارا عنيدا ، شكاه الناس لأبى الحسن الدينورى ، فوعظه ، فلم يقبل وأخرجه الى بيت المقدس ، وشكوه الى بنان ابن أحمد الواسطى الواعظ ، فوعظه ، فلم يقبل ، وأخرجه الى بلاد المغرب ، فأمر بسلب أموال عفان المذكور · فتوجه عفان الى الشريف على بن عبد الله ، وأخبره بالأمر ، وأنه عازم على مهاجرة مصر الى غيرها من البلاد · فتوجه به الشريف على الى مقام السيدة نفيسة · وجلس كل واحد منهما فى جانب من القبر الشريف · وقرأ شيئا من القرآن الكريم · وتوسلا بها الى الله تعالى فى أن يدفع ظلم تكين عن عفان ، ويفرج كربه ، فأخذتهما سنة من النوم ، فرأى الشريف على السيدة نفيسة تقول له :

ـ خذ عفان ، وتوجه به الى تكين ، فقد قضيت حاجته ·

فاستيقظ وتوجه به اليه ، فلما دخلا عليه ، وقف تكين على قدميه ، وهو ترتعد فرائصه ، وقد حم لوقته · وقال :

ـ رأيت السيدة نفيسة تقول لى ، أكرم الشريف عليا ، وارجع عن عفان ، فانه استجار بنا ·

فقال الشريف : هذا عفان بين يديك ·

فقال تكين : والله لم أره · يارب انى تائب · فأبصره فى الحال · وقال له : أنت عتيق السيدة نفيسة وأكرمهما · وتصدق بمال وفير ، وحسن

شأنه ، وأحسن الى أهل مصر . ولازم زيارة السيدة نفيسة ، الى أن توفى يوم السبت العاشر من ربيع الأول سنة احدى وثلاثين وثلاث مائة . وحمل الى بيت المقدس ، كوصيته ، وكان يقول : أهل مصر يخافرنني ، وأنا أخاف دعوة عفان عند ضريح السيدة نفيسة ، وأقام بعده ولده على طريقته فى الاحسان والزيارة . وتوفى عفان فى سنة اثنتين وعشرين وثلاث مائة ، ودفن فى طريق مصر .

● حكى عن أبى العز اليمانى ، أنه قال : كنت عزيزا فى قومى ، أثيرا فى عشيرتى ، من أكثرهم مالا وضياعا ، فاستطلت بنفسى وشمخت بأنفى وتكبرت على الناس . واحتقرت أمرهم فلم ألبث حتى ذهب مالى ، فضاقت بى الأرض بما رحبت ، وعزانى الصديق ، وفرح الحسود فقال لى صديق : عليك بالصالحين عسى الله أن يفرج عنك ما نزل بك ، فاعتزلت الناس ، فرأيت فى نومى كأنى فى فضاء واسع ، فيه نور ساطع ، يظهر تارة ويختفى تارة أخرى ، فأخذنى العجب من ذلك فاذا بقائل يقول : هذا نور السيدة نفيسة بنت الحسن . فقلت : عسى الله أن يجمع بينى وبينها فاسألها الدعاء بزوال كربتى . فقيل لى : انها ماتت . فقلت : أغتنم بركة زيارتها ، فسمعت من يقول : أنا نفيسة يا أبا العز . فارق نفسك ، وأنزع عنها سوءها .

فقلت : فارقتها فرقة لا عودة لى اليها . وانى تبت الى الله عز وجل مما فرط منى .

فقالت : أبشر . فقد قبلت التوبة . وزالت الحوبة .

فأصبحت فرحا بما رأيت وانصلح حالى بعد قليل من الأيام . وزادنى الله ـ بفضله وكرمه ـ أضعاف ما كنت فيه . ببركتها رضى الله عنها .

● أورد ابن اياس ، فى حوادث سنة ٩٢٦ ، أن شخصا يقال له محى الدين ابن مشرى ، كانت له ابنة صغيرة لها من العمر نحو سبع سنين ، وكان أبوها ساكنا فى المراغة ، بالقرب من مزار السيدة نفيسة رضى الله عنها . وكان على رأس تلك البنت كوفية من الذهب ، فوقفت تلعب مع الصغار فى الحارة ، وكان لهم جار صبى أمرد ، فطمع فى الكوفية الذهب التى على رأس البنت ، فلعب بعقلها ، وقال لها أمك فى السيدة نفيسة ، وأرسلت تطلبك هناك ، فمضت معه ، وأخذ معه عبدا أسود ، فلما توجهوا بتلك البنت الى تربة خراب خلف مزار السيدة نفيسة ألقيا بالبنت فذبحاها هناك . وحملاها وألقياها فى فسقية هناك ، وأخذا الكوفية التى على رأسها ، وتركاها تتخبط فى دمائها ، فأقامت هناك يوما وليلة ، فكثر التفتيش عليها من أمها وأبيها ، فنزل أبوها الى السوق وأوصى التجار بمراقبة الكوفية الذهب التى كانت

على رأس ابنته ، فاذا رأوها ، أتوه بها ، فبينما هو فى الصاغة ، واذا هو بالصبى الأمرد يعرض الكوفية للبيع ، فقبضوا عليه ، وتوجهوا الى باب الأمير كمشبغا ، فلما عرضوه على الوالى ، أقر بأنه أخذ الكوفية ، من فوق رأس البنت ، وأنه ذبحها ، ورماها فى فسقية ، خلف مزار السيدة نفيسة ، فقالوا له : امض معنا ، وأرنا ذلك المكان الذى رميتها فيه · فخرج معهم ، وهو فى الحديد ، واتى بهم الى تلك الفسقية التى رماها فيها ، فنزل أبو البنت اليها ، فوجدها راقدة · وهى مذبوحة وفيها بعض روح ، ولم ينقطع وريدها من الذبح ، فحملها وطلع بها من تلك الفسقية ، فلما بلغ الأمير ذلك ، أرسل فأحضر الجميع بين يديه ، وقصوا عليه قصة الصبى وما جرى له مع البنت ، فحزن الامير ، وقال لها : من فعل بك هذا ؟ فاشارت الى الصبى والعبد الأسود الذى على باب البيت ، الذى تسكن فيه البنت ووالدها وأحضروا للبنت من ضمد لها جرحها الذى برقبتها وعاشت بعد ذلك وبرأت من الجرح ·

وقد قالت البنت ، أنه بعد أن ألقيا بها فى الفسقية ، دخلت عليها امرأة، وعلى وجهها قناع وقالت : لا تخافى أنى أنا السيدة نفيسة ، وغدا تخلصين من هذا المكان ·ثم مسحت الدم من رقبتى فانقطع فى الحال · وسكن روعى مما كنت فيه ·

● قال الامام الشعرانى رحمه الله تعالى : دخلت أنا لقبر السيدة نفيسة مرة ، فوقفت على باب مشهدها الأول أدبا ، ودخل أصحابى الى قبرها، فلما نمت جاءتنى وعلى رأسها مئزر صوف أبيض ، وقالت لى : أنا نفيسة فاذا جئت للزيارة ، فادخل الى قبرى فقد اذنت لك · فمن ذلك اليوم ، وأنا أدخل لزيارتها وأجلس تجاه وجهها ·

● وقال الامام الشعرانى : رأيت فى كلام الشيخ أبى المواهب الشاذلى أنه رأى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد اذا كان لك الى الله تعالى حاجة فانذر لنفيسة الطاهرة ولو بدرهم ، يقض الله تعالى حاجتك ·

● ذكر المرحوم محمد فيضى باشا مدير الأوقاف المصرية سابقا : فقدت والدتى عقدا ثمينا لها من اللؤلؤ وبحثت عنه كثيرا فلم تجده · فتوجهت الى مقام السيدة نفيسة وطلبت من الله عز وجل أن يرده اليها ببركتها ، وعادت ونامت · وفى نومها رأت السيدة نفيسة تعطيها العقد وتقول لها « تحفظى عليه » فاستيقظت · فوجدته فى يدها ·

● ذكر المرحوم محمد باشا فوزى : انه لما كان فى أسيوط رئيسا لمجلس الاستئناف رأى وهو فى حالة بين اليقظة والنوم ، بعد أن أدى صلاة الفجر سيدة دخلت عليه وقالت له : « انتقل من هذا البيت فى هذا اليوم حالا » فاستيقظ واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، ثم عاد الى ما كان عليه من نومه • فرآها فقالت له ذلك أيضا • فاستيقظ مذعورا واستعاذ بالله العظيم• وعاد الى نومه ، فرآها للمرة الثالثة وقالت : « أنا نفيسة بنت الحسن •• وأعادت ما قالته مرة ثالثة • فأجابها بالامتثال للأمر ، واستيقظ وبحث عن بيت فى الحال وانتقل اليه وما أن تم نقل جميع ما بالبيت حتى سقط جميعه وتهدم من غير ضرر لنفس ولا مال •

● كان للمرحوم الشيخ محمود الجباسى ، خادم مقام السيدة سكينة بنت الحسين ، رضى الله عنهما ، أخت صالحة ، تسلمت حليا ، كان على نعش أخت محمد ذكر الله الحداد عند دفنها بالقرافة النفيسية ، ولما أرادت أن تسلم الورثة الوديعة ، فاذا بقلادة من الذهب ضائعة ، فاتهموها بسرقتها، واعتدوا عليها ، فذهبت الى مقام السيدة نفيسة ، شاكية ، باكية ، تضرع لربها ، وتتوسل بصاحبة المقام ، أن تظهر براءتها ، فرأت سيدة بهية الطلعة لها جلالة ووقار فى عنقها قلادة شبيهة بالقلادة الضائعة ، فسارعت اليها ، وأخذت منها القلادة ، والسيدة ساكنة هادئة ، ثم ذهبت بها الى أهل المتوفاة ، وأعطتهم القلادة ، وأخبرتهم بواقعتها ، فاعتذروا اليها ، وأكرموها•

المشهد النفيسى

بنى المشهد النفيسى على يد ابن السرى بن الحكم أمير مصر ، وهذا المشهد قائم على القبر الذى حفرته السيدة نفيسة رضى الله عنها بيديها فى حياتها ، ودفنت فيه عند موتها فى عام ٢٠٨ هـ ٠

وكان مكتوبا على اللوح الرخامى الموضوع على باب الضريح ، وهو الذى كان مصفحا بالحديد ما يلى :

بسم الله الرحمن الرحيم

« نصر من الله وفتح قريب ٠ لعبد الله ووليه مسعد بن أبى تميم الامام المنتصر بالله أمير المؤمنين ٠ صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه المكرمين ٠

أمر بعمارة هذا الباب السيد الأجل أمير الجيوش سيف الاسلام ناصر الأنام كافل قضاء المسلمين وهادى دعاة المؤمنين عضد الله به الدين وأمتع بطول بقائه المؤمنين وأدام قدرته وأعلى كلمته وشد عضده بوالده الأجل الافضل سيف الأنام جلال الاسلام ، شرف الأيام ، ناصر الدين خليل أمير المؤمنين ، زاد الله فى علائه وأمتع أمير المؤمنين بطول بقائه فى شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة » ٠

والقبة التى على الضريح جددها الخليفة الحافظ لدين الله عبد المجيد العلوى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وأمر بعمل الرخام الذى بالمحراب ٠

وكان مكتوبا على باب الضريح البيتان الآتيان وهما للامام الشافعى رضى الله عنه :

يا أهل بيت رسول الله حبكم ... فرض من الله فى القرآن أنزله

يكفيكم من عظيم القدر أنكم ... من لم يصل عليكم لا صلاة له«١»

«١» أى لا صلاة كاملة .

وقد جدد المشهد عدة مرات ، احداها على يد الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧١٤ هـ وأخرى في سنة ١١٧٣ هـ حيث جدد رحابه ورونقه الأمير عبد الرحمن كتخدا

وقد كتب على باب الضريح بالذهب على الرخام البيتان الآتيان ، وهما للعلامة محمد بن اسماعيل النفراوى المالكى :

عرش الحقائق مهبط الأسرار — قبر النفيسة بنت ذى الأنوار

حسن بن زيد بن الامـــام على ابن عم المصطفى المختار

وله أيضا ، ما كتب على باب القبة بالذهب على الرخام ، وبهما حساب السنة التى جدد فيها المشهد :

عبد رحمن لعفـــو قد ترجى
قد بنـــاها روضـــة للزائرين

فلذا أرختهـــا يا زائريهـــا
أدخلوها بســـلام آمنـــين .

وقد أمر عباس باشا الأول بصنع مقصورة لقبرها من النحاس الأصفر مكتوب عليها :

مقصورة أتقنت لله صـــنعتها
تستوجب الشكر عند الله والناس

تذيع همة منشـــيها مؤرخـــة
من بعض طيب احســـان لعباس

وأقيم بناؤه الحـــالى فى سنة ١٣١٢ هـ وافتتح للعبـــادة فى ســـنة ١٣١٤ باحتفال فخم .

وقد ورد فى بعض المراجع أنه لما أزيل البناء القديم ورفعت الأتربة عن صحن المسجد ظهرت مقامة القبر مبنية بالطوب اللبن . وحدثت ثغرة فى المقامة فسولت للمهندس المشرف على بناء المسجد نفسه أن يمد يده من الثغرة ليستطلع ما فى القبر ، فمدها فمست جسما كجسم النائم ، فأصيب كفه

فى الحال بدمل أستمر فى علاجه ثلاثة أشهر ولم يبرأ منه الا بتفلة من فم أحد الصالحين معروف باسم الشيخ سليم أبى حسن المسلمى ، بعـــد أن استتابه فتاب وقرأ الفاتحة ٠

وهذه الحكاية لا تزال ذائعة فى حى السيدة نفيسة الى الآن ٠

قال المقريزى « قبر السيدة نفيسة أحد المواضع المعروفة باجابة الدعـاء بمصر » ٠

وكان كافور الأخشيدى لا يدع زيارة السيدة نفيسة فى كل يوم خميس وعندما يبدو له باب المشهد من بعيد يترجل ويمشى ويدخل حاسر الرأس ويسأل الله تعالى فى ضريحها قضاء حوائجه فتقضى ، ويفى بالنذر ، وكان يأتى بالمسك والطيب والشمع والزيت والقناديل ، ويحسن الى خدم المقـام والفقراء كثيرا ، واستمر على ذلك الى أن توفى بمصر فى سنة ٣٥٦ هـ ٠

وما زال المشهد النفيسى مرفوع الأركان ، سميق البنيان يشع منـــه الضياء وتنبعث من حفافيه النفحات والبركات ٠

مراجع الكتاب

ـ القرآن الكريم	
ـ تفسير البيضاوى ، وابن كثير	
ـ نور الأبصار	الشبلنجى
ـ اسعاف الراغبين	محمد الصبان
ـ الصواعق المحرقة	أحمد بن حجر الهيثمى
ـ تاريخ الرسل والملوك	الطبرى
ـ أسد الغابة	عز الدين بن الأثير
ـ الاستيعاب	ابن عبد البر
ـ نهج البلاغة	ابن أبى حديد
ـ رياض الأحزان وحدائق الأشجان	محمد حسن القزوينى
ـ أخبار الزينبات	العبدلى
ـ الرياض النضرة	المحب الطبرى
ـ الجواهر النفيسة فى مناقب السيدة نفيسة .	
ـ لطائف المنن	الامام الشعرانى
ـ محمد رسول الله	عبد الحميد جوده السحار
ـ بطلة كربلاء	د . بنت الشاطىء
ـ فاطمة الزهراء	عباس محمود العقاد
ـ السيدة زينب	على أحمد شلبى
ـ السيدة زينب	محمود الشرقاوى
ـ الحياة البرزخية فى القرآن	د . محمود بن الشريف
ـ السيدة نفيسة	محمد شاهين حمزة
ـ كريمة الدارين	أحمد فهمى محمد

محتويات الكتاب

دار الطباعة الحديثة
٦ كنيسة الأرمن أول شارع الجيش
ت : ٩٠٨٣١٨

رقم الايداع ١٩٧٤/٣٦٧٤